# سورة الفجر

## مكية، وهي إحدى وثلاثون آية مع البسملة، وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية. قال صاحب "فتح البيان": هي مكية بلا خلاف في قول الجمهور. وهذا ما روي عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة ﷺ أجمعين.

كان النبي ﷺ يحب قراءة سور الأعلى والغاشية والفجر وأمثالها في فرائض الصلوات. فعن جابر أن معاذ بن جبل صلى بالناس، فجاء شخص وبدأ يصلي وراءه، وأطال معاذ الصلاة، وفي رواية أنه قرأ سورة آل عمران والنساء، فلما طالت صلاته ترك الرجل الصلاة خلف معاذ وصلى وحده في زاوية من المسجد وذهب. فذُكر ذلك لمعاذ، فقال: هو منافق، ثم شكاه إلى النبي ﷺ، فلما علِم الرجل بذلك جاء النبيَّ ﷺ وقال: يا رسول الله، كان معاذ يصلي بالناس وكنت أصلي خلفه، ونحن أصحاب أعمال، وكانت ناقتي واقفة بدون علف، فتركت الصلاة وراءه وصليت وحدي وخرجت وعلفت ناقتي. فغضب النبي ﷺ على معاذ وقالَ ﷺ: يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ ما الحرج لو قرأت في الصلاة بـــ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى؟ ولماذا تقرأ السور الطوال*؟

* نصُّ ما ورد في الحديث هو: أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوِ النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ، أَوْ أَفَاتِنٌ، ثَلاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ. (البخاري: كتاب الأذان)

لقد تبين من ذلك أن الرسول ﷺ قد اعتبر هذه السور من المتوسطة طولاً، ويمكن للإنسان أن يقرأ السور الطوال في أوقات خاصة، أو يقرأ القصار في مرضه، ولكن هذه هي السور المتوسطة التي تنبغي قراءتها عادة في الصلوات جهرًا.

يرى المستشرقون أن هذه السورة نزلت في السنوات الأولى للبعثة. وهذا هو الصواب عندي. يقول المستشرق الألماني نولدكه: إنها نزلت بعد سورة الغاشية مباشرة (تفسير "ويري"). وقد سبق أن ذكرتُ أن سورة الغاشية نزلت في أواخر السنة الثالثة أو أوائل الرابعة عند هؤلاء الأوروبيين، أي أن سورة "الفجر" نزلت عندهم في النصف الثاني من السنة الثالثة أو النصف الأول من السنة الرابعة. ويبدو أن هذا هو الرأي الصحيح، لأن هذه السور لا تتحدث عن المعارضة المنظمة، بل تشير إلى أن المعارضة قادمة، وهذا يوافق آخر السنة الثالثة وبداية الرابعة؛ أما تفاصيل المعارضة فقد وردت في السور التي نزلت بعد المعارضة، فلا علاقة لها بهذه السورة.

والأمر الثاني هو أن هذه السورة تتحدث عن عيوب الكافرين الخُلقية والشرعية والدينية كإهمالهم رعاية اليتامى وإطعام المساكين وعدم تفقُّدهم أحوال الأرامل وتركِهم العبادة. علمًا أن هذه العيوب تُذكر عن الكفار في أي فترة عادةً، ولكنهم حين يكفرون بالمأمور الرباني ويعارضونه معارضة علنية وشديدة، فلا يكون التركيز على ذكر عيوبهم التفصيلية هذه، بل ينصبّ التركيز عندها على جريمة إنكارهم للنبي، لأنها أكبر جرائمهم وأساسها، كما أن الإيمان بالرسالة أساس جميع الأعمال الصالحة، لأن الناس إذا آمنوا بالنبي صلحت أخلاقهم تلقائيا. الحقيقة أن الكافرين حين يبدأون معارضة النبي بشدّة، فإن جريمتهم هذه تفوق جرائمهم الأخرى، لأن الصالحات كلها تبدأ بالإيمان بالنبيّ. وجريمة إنكار النبيّ تؤدي إلى إنكار الحسنات كلها، ولذلك يتم التركيز عندها على ذكر جريمة إنكار النبيّ؛ لأنّ إصلاح هذا العيب يصلح العيوب كلها. بينما ينصبّ التركيز على بيان عيوبهم التفصيلية في بداية الدعوة وقبل بداية المعارضة الشديدة. لا شك أن هذه العيوب التفصيلية تذكر بعد المعارضة أيضًا، ولكن لا يتم التركيز عليها، لأن أهميتها تنقص بسبب ارتباط إصلاحها بإصلاح العيب الأهم.

طالما رأينا الناس يعترضون على المسيح الموعود عليه السلام بقولهم لماذا يركِّز دائمًا على أنه قد تلقى هذا الوحي وذلك الإلهام ولا يركز على غيرها من الأمور والعيوب، فكان عليه السلام يردّ عليهم أن كل العيوب والنقائص تكون نتيجةَ بُعْدِ الإنسان عن الله تعالى، إذ لو كان موقنًا بالله تعالى يقينًا كاملاً لما صدرت منه المعاصي، لذا فإنني أُكثر من ذِكر ما نزل عليّ من وحي متجدد وآيات ومعجزات لكي يتولد بها في قلوب الناس اليقين بالله تعالى، إذ لو تولّدَ في قلبهم اليقين الصادق وآمنوا بي، لزالت عيوبهم الأخرى تلقائيا.

باختصار، قبل أن يعارض الناسُ النبيَّ علنًا ينصبّ التركيز على ذكر نقائصهم الجزئية، فيقال لهم: فيكم كذا وكذا من العيوب، وحين يبدأون معارضته العلنية مدّعين أنهم سيسحقونه مع أَتباعه سحقًا، فينصبّ التركيز على عيبهم الأساسي.. أي ضعْف إيمانهم بكلام الله تعالى، لأنه إذا زال هذا العيب زالت العيوب الجزئية كلها تلقائيا.

وسورة الفجر هذه أيضا تركّز على المعاصي التفصيلية أكثر، حيث قال الله فيها إن الكافرين لا يهتمون برعاية اليتامى وإطعام المساكين، ويريدون أن يجمعوا المال عندهم جمعًا، مما يدل على ضعف إيمانهم، فعليهم أن يصلحوا هذا العيب. وذكرُ العيوب التفصيلية في هذه السورة يوضح أنها نزلت قبل أن تبدأ معارضة النبي ﷺ على الصعيد الجماعي المنظم، ولذلك لم تركّز على جريمة إنكارهم للنبي ﷺ بقدر ما ركّزتْ على سيئاتهم الأخرى، ولا سيما تلك التي ستُسفِر عن غلبة الإسلام وهلاكهم عند المواجهة.

إذن، فهذه السورة مما نزل في أوائل البعثة، وحيث إنها تخبر أن المعارضة المنظمة قريبة، فزمنُ نزولها هو أواخر السنة الثالثة أو أوائل السنة الرابعة للبعثة النبوية.

**ترتيبها:**

قال أبو حيان في "البحر المحيط" لقد تحدثتْ سورةُ الغاشية عن قوم سيلقون الذل والهوان حيث قال الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. أما هذه

السورة فقد أخبر الله تعالى فيها أن هذه الوجوه هم قوم لا يتفقدون أحوال اليتامى ولا يُطعمون المساكين، بل هم طمّاعون يجمعون المال جمعًا. كما كانت السورة السابقة قد أشارت بقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ إلى قوم ينالون العزة عند الله تعالى، بينما تتحدث هذه السورة عنهم بقول الله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾. (البحر المحيط)

لا شك أن سورة الفجر تتحدث عن هذين الأمرين، كما لا شك أن أحدهما ذو صلة بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. والآخر بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾.. ولكن هذه الصلة قريبة تربط بين السورتين في بعض مضامينهما، ولكن أبا حيان لم يستطع بيان الصلة التي تربط السورتين في جميع مضامينها كحلقات سلسلة واحدة. لا شك أنه فيما يتعلق ببيان الصلة القريبة بين سورة وأخرى فإن أبا حيان قد قام بسعي مشكور، وله نظر ثاقب في هذا المجال، ويتبوء مكانة فريدة بين جميع المفسرين بهذا الخصوص، ولكن يجب أن نعلم أنه إضافة إلى الصلة القريبة بين سورة وأخرى، فتوجد بين سور القرآن وآياته روابط أخرى تجعلها مرتبة مترابطة كسلسلة طويلة من مواضيع واسعة، بحيث تجعل القرآن الكريم في الأخير كعقد منظوم. لقد شبّه النبي ﷺ الوحيَ كصلصلة الجرس (البخاري: بدء الوحي)، وفي هذا إشارة إلى أن الوحي كلام مترابط متسلسل كتسلسل رنّة الجرس. وحيث إن القرآن الكريم أفضلُ من أي وحي آخر، فقد نبّهنا النبيُّ ﷺ بهذا التشبيه إلى أن لا نعتبر القرآن الكريم كلاما بلا ترتيب، كلا، بل هو وحي الله تعالى، وكل جزء منه مرتب ومنظوم بآخر. والعلامة أبو حيان لم يستطع أن ينتبه إلى هذا التسلسل الطويل بين سور القرآن الكريم كما قلتُ، ومع ذلك فإن خدماته بصدد بيان ترتيب القرآن الكريم لخدمات مشكورة جديرة بالتقدير والإشادة، فجزاه الله أحسن الجزاء.

ذكرت آنفا أن هناك نوعين من الصلة بين السور هما: صلة قريبة تربط موضوع الآية الأخيرة من سورة بموضوع الآية الأولى من السورة التالية، ومثاله أننا نسأل الله تعالى الهدى في آخر سورة الفاتحة قائلين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فبدأت

سورة البقرة بقوله تعالى ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وكأن الله تعالى قال في مستهل سورة البقرة: ها هو الهدى الذي طلبتموه في الفاتحة. ومثل هذه الصلة بين السورتين تسمى الصلة القريبة. ولكن السور ترتبط بعضها ببعض في موضوع متكامل متسلسل في عدة سور. والتدبر في السور من هذه الزاوية يكشف أن هناك مجموعات تضمّ خمسًا بل عشر سور تتحدث عن موضوع واحد، ومضمونها متسلسل كحلقات السلسلة. ولقد سبق أن ذكرتُ الموضوعَ الذي يجعل هذه السورة حلقة في سلسلة السور العديدة السابقة، إذ أخبرتُ أن السور السابقة تتحدث عن صدق النبي ﷺ من حيث العهد الأول والعهد الأخير للإسلام، وقد بدأ هذا الموضوع من سورة التكوير، حيث أخبر الله تعالى أن الأدلة على صدق النبي ﷺ لن تتيسر في هذا العصر فقط، بل كلما ضعف الإسلام أتى الله بأدلة صدقه من عنده؛ وفي هذا السياق أخبر ﷻ في سورة البروج عن ولادة بدر عند فساد العالم في الزمن الأخير، إلا أن ولادة هذا البدر كانت تنطوي على شبهة أيضًا، وهي أن نور محمد ﷺ قد يختفي عن الأنظار رغم إضاءته للدنيا، فأزال الله هذه الشبهة في سورة الطارق مبينًا أن هذا الموعود سيأتي باسمَيْن، البدر والطارق، بمعنى أنه يتسبب في ظهور جلال النبي ﷺ ظهورا مباشرا، لا أن يكتفي الناس بالإيمان بالنبي ﷺ بمجرد السماع، كلا بل إن هذا الموعود سينشئ جماعة تحظى بوصال الله تعالى وصالاً مباشرًا، وتشاهد أنوار الرسول ﷺ وبركاته بنفسها. وكأن سورة البروج تشير إلى المسيح الموعود، وسورة الطارق تشير إلى المهدي المبشّر به لهذه الأمة.

ثم بينتُ الصلة الموجودة بين سورتي الأعلى والغاشية بأن النبي ﷺ كان يقرأهما دائمًا في الجمعة والعيدَيْن. وهاتان السورتان تتحدثان عن غلبة النبي ﷺ وغلبة ذلك الموعود معًا، أو يمكن القول إن جزءا من السورتين يتحدث عن الرسول ﷺ وجزءاً منهما يتحدث عن هذا الموعود، وبتعبير آخر قد ضرب الله هنا مثالاً واحدا إلا أنه ينطبق على النبي ﷺ وعلى هذا الموعود أيضا، إذنْ فهذا المثال كسيف ذي حدين حيث يقيم الحجة على أعداء الإسلام في زمن النبي ﷺ وفي زمن هذا الموعود أيضا. وقد بينتُ في هذا

الصدد أن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(الأعلى:٨) يؤكد ضرورة بعثة هذا الموعود أيضا، حيث أخبر الله تعالى فيه أن القرآن في ذلك الزمن سيكون محفوظا بظاهره، ولكنه سيختفي من حيث فحواه ولُبّه، فيحيي الله تعالى معارفه بواسطة ذلك الموعود ثانية، فيعود بلبّه إلى الدنيا مرة أخرى.

كما أن قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ يشير إلى معارضة الإسلام ورُقيِّه في العهدين الأول والأخير، حيث بيّن الله تعالى أنه كلما أتى على الإسلام فترة ضعف، هيأ الله الأسباب لإزالته. ستتم غلبة الإسلام والمسلمين بهذا الطريق، ولا سبيل لرقيّهم سواه. هذا الموضوع يُعاد ويُذكر منذ عدة سور باستمرار، وهكذا تبدو كل سورة مرتبطة بالأخرى.

والصلة العميقة التي تربط هذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد بيّن في السورة السابقة أن كفار مكة سيعارضون الإسلام ويحاربونه ويكيدون ضده كل كيد، ولكنهم لن ينجحوا، بل سينتصر المسلمون عليهم؛ كما بيّن فيها أيضًا أنه كلما جاء على الإسلام وقت عصيب نصره الله تعالى وهزم أعداءه. أما هذه السورة فهي تزيد هذا الموضوع إيضاحا حيث تذكر تفاصيل الأعمال التي يقوم بها أصحاب الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة. ثم تخبر كيف يأتي الله تعالى بذوي الوجوه الناعمة التي لسعيها راضية. والظاهر أن هذه الوجوه الناعمة أو الوجوه العاملة الناصبة لم تكن قد ظهرت حتى السنة الثالثة من البعثة؛ لأن المعارضة المنظمة لم تكن قد بدأت بعدُ من قبل كفار مكة، كما لم يكن أصحاب الوجوه الناعمة الراضية لسعيها معروفين للناس، إذ كان عدد المؤمنين قليلا جدا يُعَدّ على الأصابع؛ ومع ذلك يخبر الله تعالى في هذه السورة عن شدة معارضة الكفار ورقي المؤمنين ورفعتهم كما يخبر كيف أن المسلمين أنفسهم سيفسدون وينحرفون عن الإسلام، وكيف يأتي الله بنصره عندئذ ثانية.

وهنا أجد نفسي مضطرًا لبيان حادث تأييد الله ونصرته الذي وقع معي مؤخرا. هناك مئات بل آلاف من مفاهيم القرآن الكريم التي قد كشفها الله عليّ بفضله الخاص بالإلهام، ومهما شكرتُه ﷻ على هذه النعمة فلن أؤدي حق شكرها. كانت

هناك آيات عديدة غير واضحة بالنسبة إليّ، فأنزلَ الله معانيها على قلبي بوحيه وإلقائه، وهكذا متّعني بعلومه الخاصة. خذوا مثلاً ما علّمني الله تعالى في موضوع ترتيب سورة البقرة. فذات مرة كنت جالسا إذ ألقى الله في قلبي فجأة أن الآية الفلانية هي مفتاح هذه السورة. ولما تدبرتُ فيها انكشف علي ترتيبها كله. كما أخبرني الله تعالى ذات يوم بمفاهيم سورة الفاتحة إلقاءً وإلهاما في الرؤيا، فامتلأ صدري بعدها بحقائق سورة الفاتحة. لقد فهّمني الله تعالى بإلهامه ترتيب عشرات الآيات والسور القرآنية؛ فمن المفاهيم التي كانت خافية عن أعين الناس فكشفها الله عليّ ما بيّنتُه من صلة سورة البروج بسورة الطارق؛ حيث تشير إحداهما إلى المنصب المسيحي والأخرى إلى المنصب المهدوي، فقد ألهمني الله تعالى من الأدلة ما أستطيع به إثبات استدلالي هذا بحيث لن يسع أي منصف بعدها إنكار ما أقول، ولن يكون له بد –عقليًا– من التصديق أن دعواي مبنية على الأدلة، وإن كان من الممكن أن يقول إنه لا يقبل هذه الأدلة.

باختصار، قد كشف الله عليّ بالإلهام معاني آيات عديدة صعبة الفهم، وهناك أمثلة كثيرة كهذه في حياتي، ومن هذه المواقف الصعبة هذه السورة أيضا، فكلما أمعنت النظر فيها لم أطمئن إلى ما ذكر المفسرون الآخرون من معان. لا شك أن المفسرين قد ذكروا لها معاني كثيرة تحلّ كل ما في هذه السورة من معضلات في رأي الناس، ولكنها لم تكن شافية في رأيي. كنت دائم القلق والتفكير بشأنها، وكلما خطر ببالي معنى رفضته بنفسي بعد التدبر والفحص باعتباره غير مستقيم. وأخيرًا وبعد مدة طويلة عندما بدأت إلقاء درس آخر جزء من القرآن الكريم أمام النساء انكشف عليّ جزء من هذه السورة، ولكن لم ينكشف موضوعها كله. كان المعنى الذي انكشف عليّ عندها يرفع نصف سقف مفاهيم السورة لا كله. واستمر بي الحال هكذا وظللتُ غير مطمئن بمعانيها كليًّا. ولما بدأت الآن درس القرآن واجهتْني هذه السورة مرة أخرى، فأخذتُ أتدبر فيها ثانية. لقد بدأت إلقاء درس الجزء الأخير من القرآن الكريم في تموز/يوليو ١٩٤٤ في مدينة دلهوزي، وقد تدبرت في هذه السورة مرارا في هذه الفترة قَلِقًا من اقتراب الدرس وعدم انكشاف المعاني

عليّ بحسب ترتيب السور. كنت أقرأ هذه السورة مرارا وأُجيل النظر في مطالبها، وكلما خطر ببالي مفهوم اعتبرتُه بعد التدبر غير شافٍ ولا كافٍ. باختصار، أجلتُ فيها النظر عشرات المرات بدون جدوى، إلى أن جاء وقت درس سورة الغاشية، وبدأت تدوين ملاحظاتي التفسيرية لها.. ولكن تفكيري كان يتجاوز سورةَ الغاشية إلى سورة الفجر مرة بعد أخرى. كنتُ أرى أن سورة الغاشية مفهومة لي، وإذا جاءت آية صعبة فيها فسوف تنحلّ تلقائيا على ضوء ترتيب السور؛ ذلك أن رامي الكرة يعرف المسافة التي تصلها قبل رميها، كذلك فإن الذي يفسر القرآن الكريم آخذًا في الحسبان ترتيب الآيات والسور تنكشف عليه معانيها تلقائيا على ضوء هذا الترتيب، ولكن هذا لا يتيسر إلا لمن أنفد عمره في هذا الفن، إذ يعرف مجرى نهر معاني السورة وجهة انحدار هذا الماء. أما مَن لم يتيسر له التدبر في القرآن الكريم على هذا النحو فلا يمكن أن يدرك هذه الأمور. فمثلا عندما كنت أكتب تفسير سورة الكهف لم أستطع فهم قوله تعالى ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۞ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾(الكهف:٢٤-٢٥) على ضوء السياق، فقلت في نفسي أثناء كتابة تفسيرها سأتّبع الترتيب الطبيعي للآيات، وعندما أصل إلى هذه الآية فسأفكر في مفهومها على ضوء هذا السياق والترتيب؛ فظللت أكتب تفسيرها بحسب السياق والترتيب إلى أن وصلتُ الى هذه الآية، فانكشف عندها مفهومها عليّ بحيث أدركتُ أنه لا يمكن تفسيرها بأي معنى آخر، لأن سياق الآيات السابقة تضطرك للأخذ به. والطريف في الأمر أن المولوي شير علي المحترم -الذي كان يُعدّ ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية- بعث إليّ بملحوظاته حول هذه الآية لأقوم بتوثيقها، فوجدتُ أنه كتب نفس المعنى الذي ذكرتُه لها. علمًا أنه لم يكن قد كتب هذه الملحوظات التفسيرية في قاديان، بل في إنجلترا، فسألتُ "مَلك غلام فريد" المحترم ما إذا كان المولوي "شير علي" قد أعدَّ هذه الملحوظة في الماضي أم عدَّلها الآن. فقال: قد أعدّها في إنجلترا. فقلتُ: إذا كان قد أعدّها في إنجلترا، فكيف وصل إليه هناك معنى هذه الآية؟ إذ تدبّرتُها كثيرًا و لم أعرف تفسيرها إلا عند كتابة تفسير الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم! فقال لي: لقد سبق أن ذكرتَ هذا

المعنى نفسه في دروسك عام ١٩٢٢، وقد أخذه المولوي شير علي المحترم من ملاحظاتك التفسيرية عندها.

يبدو أنني لما وصلتُ إلى هذه الآية أثناء درسي في عام ١٩٢٢ انكشف عليّ معناها تلقائيا، وحيث إنه انكشف عليّ تلقائيًا يومها، فلم أسجله على هامش مصحفي، ونسيته بعد فترة. ولما وصلتُ الآن إلى هذه الآية أثناء تدبري الآيات بحسب ترتيبها انكشف عليّ معناها نفسه فجأة مرة أخرى. فثبت أن من يعتاد تفسير الآيات حسب ترتيبها وسياقها لا ينحرف عن المعنى الصحيح، بل يجري مع هذا التيار وفي نفس الجدول الذي يشير إليه الموضوع بلسان حاله.

باختصار، كلما اقترب موعد درس سورة الفجر ازددتُ قلقًا، وقلت في نفسي: كيف يمكن أن أُطَمئِن الآخرين بتفسير هذه الآية، وأنا غير مطمئن به؟ كان بوسعي أن أذكر المعاني التي ذكرها المفسرون، ولكن تفسير هذه الآية كان لا يستقيم تمامًا بحسب الترتيب الذي كنت أراعيه لدى تفسير السور السابقة. ففكرتُ أن أذكر للناس المعاني التي ذكرها الآخرون، لأن هذا الدرس كان سيُطبع على شكل كتاب عن قريب؛ فحتّامَ أنتظر انكشاف المعاني التي تنسجم مع السياق؟ فلعل الله يكشفها عليّ يوما ما. لقد قام المفسرون السابقون مثل الرازي وصاحب البحر المحيط والخليفة الأول بتفسير هذه الآيات، لو ذكرتُ كل ما ذكروه من معانيها أصبح الأمر مقبولا. ولكن كان قلبي يقول أن تلك المفاهيم لا تنطبق هنا تمام الانطباق بالنظر إلى سياق الآيات وترتيبها.. فلم أطمئن بذِكرها. إلى أن جئتُ إلى "المسجد المبارك" لإلقاء درس سورة الغاشية يوم الأربعاء وهو ١٧ من شهر الصلح ١٣٢٤من التقوم الهجري الشمسي✪ الموافق ١٧ كانون الثاني/يناير عام ١٩٤٥

---

✪ التقويم الهجري الشمسي هو تقويم ابتكره حضرة المفسر ﷺ في عام ١٩٤٠، وهو تقويم شمسي يبدأ من هجرة الرسول ﷺ بدل أن يبدأ بميلاد المسيح عليه السلام. وقد بنى حضرته ﷺ أسماء الأشهر على أحداث بارزة في سيرة النبي ﷺ، فجعل كل حدث مميز في سيرته ﷺ اسمًا للشهر الذي وقع فيه الحدث. وهذه الأشهر هي: الصلح (إشارة إلى صلح الحديبية)، التبليغ (إشارة إلى رسائل النبي ﷺ إلى ملوك العالم)، الأمان (إشارة إلى خطبة حجة الوداع)، الشهادة (إشارة إلى

الميلادي. لقد جئت لإلقاء درس سورة الغاشية، وبالي مشغول في سورة الفجر. وفيما أنا في هذا التفكير العميق بدأتُ أصلّي بالناس صلاة العصر، وقلبي مثقل بهذا التفكير. ومن عجائب قدرة الله تعالى أنه فيما أنا أرفع رأسي من السجود الأخير بحيث لم يكن رأسي قد ارتفع عن الأرض أكثر من شبر إلا وانحلّتْ عليّ سورة الفجر في لمح البصر. والغريب أنني قد مررت بمثل هذه التجربة مرارا من قبل أيضا حيث كشف الله عليَّ معاني بعض الآيات الصعبة وقت السجود، خاصة في السجود الأخير من الصلاة. ولكن التفهيم الذي تلقيتُه هذه المرة كان رائعًا جدا، إذ كان حول موضوع صعب وواسع جدا. فلما سلّمتُ من الصلاة، قلتُ بصورة عفوية وبصوت عال: الحمد لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالْفَجْرِ ﴿٢﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٣﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٤﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٥﴾

**شرح الكلمات:**

**يَسْرِ**: أصلُه يسري. سرى يسري: سارَ عامَّةَ الليل. (الأقرب)

---

استشهاد ٧٧ صحابيا غدرًا في الرجيع وبئر معونة)، الهجرة (إشارة إلى الهجرة النبوية)، الإحسان (إشارة إلى إطلاق سراح قبيلة طيء تقديرا لذكرى كرم حاتم الطائي الذي اشتهر بالكرم)، الوفاء (إشارة إلى وفاء الصحابة للنبي ﷺ في ذات الرقاع)، الظهور (إشارة إلى معركة مؤتة التي كانت علامة أولى على بدء ظهور الإسلام)، تبوك (إشارة إلى غزوة تبوك)، الإخاء (إشارة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، النبوة (إشارة إلى البعثة النبوية)، الفتح (إشارة إلى فتح مكة). ندعو الله تعالى أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه هذه الأشهر رائجة في العالم، وأن تظل أحداث السيرة النبوية نبراسًا لكل مؤمن. (المترجم)

**التفسير**: قبل ذكر المعاني التي فهّمني الله تعالى إياها بإلهام منه أود ذكر المعاني التي ذكرها الآخرون، ليعرف الإخوة المشاكل التي واجهتني، وأنها كانت مشاكل بالفعل. لو أني بيّنتُ معاني هذه السورة بدون انشراح الصدر -الذي هو متيسر لي الآن- لم تطمئن نفسي بها. وما أُبيّنه الآن يتعلق بالآيات الأربع التالية: ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

لقد أقسمَ الله تعالى هنا بأربعة أنواع من الأقسام: والقَسَم معناه الشهادة، وقد بينتُ هذا الموضوع من قبل مفصّلا ولا داعي لإعادته. يقول الله تعالى هنا: أقدّم كشهادة الفجرَ، والليالي العشر، والشفع والوتر، وأخيرًا الليل حين يسري.

السؤال هنا: ما الذي أقسم الله به كشهادة، وعلامَ؟ فما هو الفجر، وعلامَ قُدِّم كشهادة؟ وما هي الليالي العشر وعلامَ قُدّمتْ كشهادة؟ وما هو الشفع والوتر وعلامَ قُدّم كدليل؟ وما هو الليل الذي سيسري ويذهب، وعلامَ قُدّم كشهادة؟

**الفجر**:

أما الفجر فمعروف، وهو الصبح الذي يأتي بعد الليل. قاله علي، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي.

وعن مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب: المراد به فجرُ يوم النحر خاصة. (ابن كثير).. أي أنهم أيضًا يعنون بالفجر الصبح، ولكن ليس كل صبح، بل صبح العاشر من ذي الحجة.

وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تُفعَل عنده، كما قاله عكرمة.. وهذا يعني أن عكرمة أيضا فسّر الفجر كما فسّره مسروق ومحمد بن كعب ومجاهد، والفرق أنهم يعتبرون الفجر موعد فجر العاشر من ذي الحجة، أما عكرمة فيرى أن المراد منه صلاة الفجر نفسها في ذلك اليوم، أو يرى أن المراد من الفجر هو صلاة التهجد في ذلك اليوم. وقيل: المراد بالفجر جميع النهار، وهي رواية عن ابن عباس؛ وهذا يعني أن المراد من الفجر هنا العاشر من ذي الحجة كله.. أي يوم العيد كله. (ابن كثير)

**وليالٍ عشر:**

والسؤال هو ما المراد من الليالي العشر؟

قال ابن عباس: المراد بها عشرُ ذي الحجة.. أي الليالي العشر التي قبل العيد من هذا الشهر.

وهذا ما قاله أيضا ابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "ما من أيامٍ العملُ الصالح فيهن أحبُّ إلى الله من هذه الأيام" (يعني عشر ذي الحجة)، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: "ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء." (ابن كثير والبخاري والترمذي)

وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر ابن جرير. (ابن كثير)

وعن ابن أبي ظَبْيان عن أبيه عن ابن عباس: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان. (ابن كثير)

فهناك ثلاثة آراء عن الليالي العشر:

الأول: إنها الليالي العشر قبل العيد من ذي الحجة.

الثاني: إنها الليالي العشر الأوائل من محرم.

الثالث: إنها الليالي العشر الأوائل من رمضان.

وعن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: "إن العَشر عَشْرُ الأضحى (أي أنه ينسب إلى النبي ﷺ أنه قال إن الليالي العشر هي العشر الأوائل من ذي الحجة قبل عيد الأضحى)، والوَتْر يوم عرفة (لأنه في اليوم التاسع من ذي الحجة)، والشفع يوم النحر (أي يوم العيد)". (نقله ابن كثير عن الإمام أحمد).

"ورواه النَّسائي عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله كل منهما عن زيد بن الحباب به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد بن الحباب به. وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم". (ابن كثير)

وهذا يعني أن هذا الحديث قد روي في أربعة من كتب الحديث عن زيد بن الحباب، وإن كان هناك اختلاف في الرواة الآخرين دونه، وهذا يُعتبر من روايات الآحاد. ويقول ابن كثير وهو عالم كبير في الحديث بعد نقل هذه الرواية أنه يشكّ

في رفع هذا الحديث إلى الرسول ﷺ، أي أن رفع هذا الحديث إلى الرسول ﷺ ليس بالأمر اليقين.

**والشفع والوَتْر:**

"الوتر يومُ عرفة، لكونه التاسع، والشفع يومُ النحر لكونه العاشر. وقاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضا. (ابن كثير).

"وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدّثني عقبة بن خالد، عن واصل ابن السائب قال: سألتُ عطاء عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قلتُ: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا ولكن الشفع يوم عرفة، والوتر ليلة الأضحى. (ابن كثير)

يبدو أن الراوي قد أخطأ هنا، أو أن ابن كثير قد أخطأ عند النقل لأن يوم عرفة ليس شفعًا، بل هو وتر، لأنه اليوم التاسع؛ وليلة الأضحى ليست وترا، لأنها الليلة العاشرة.

"وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثني أبي، عن النعمان -يعني ابن عبد السلام- عن أبي سعيد بن عوف، حدثني بمكة قال: سمعتُ عبد الله بن الزبير يخطب الناس، فقام إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرْني عن الشفع والوتر. فقال: الشفعُ قولُ الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والوترُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. (ابن كثير)

المراد من قوله (يخطب الناس).. أي يخطب في الناس في مكة أيام خلافته. والمعروف أن عبد الله بن الزبير قد رفض بيعة يزيد وأعلن خلافته في مكة. كان عبد الله حفيدا لأبي بكر ﷺ وابنًا للزبير بن العوام، وكان صحابيا جليلا عابدا، وقد اعتبره كثير من الناس مجدد القرن الأول، والبعض الآخر مهديا.

أما قولُ الزبير: "الشفعُ قولُ الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والوترُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾" فيعني به أن الله تعالى قد بيّن في القرآن الكريم أنكم إذا ذهبتم إلى الحج فلكم أن تقيموا بعد ذلك ليومين أو تتأخروا فتقيموا ثلاثة؛ فالشفع والوتر إشارة ليومين أو ثلاثة يقيم فيها الحاج في الحرم.

وقد نقل ابن جرير أيضا هذا القول لابن الزبير.

وعن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ﷺ: "إنَّ للَّه تسْعَةً وَتسْعِينَ اسْمًا مئَةً إلا وَاحدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَزَادَ هَمَّامٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ". (مسلم: كتاب الذكر والدعاء)

والمفهوم الحقيقي لهذا الحديث أن مطالعة الإنسان صفات الله تعالى بتدبُّرٍ وعمقٍ تجعله تقيًّا حقًّا، لأن التقوى إنما تعني انعكاس صفات الله في الإنسان، والذي يضع جميع صفات الله في حسبانه فلا يمكن أن يُهمل أي صفة حميدة، ومن لم يغضّ الطرف عن أي صفة حسنة وعمل بكل خير فلا يبقى شك في دخوله الجنة.

"قال الحسن البصري وزيد بن أسلم: الخَلق كلهم شفعٌ، ووَترٌ؛ أقسمَ تعالى بخَلقه. وهو رواية عن مجاهد." (ابن كثير)

وقال العَوفي عن ابن عباس: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الله وترٌ واحد، وأنتم شفعٌ. ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. (ابن كثير)

قال ابن أبي حاتم عن مجاهد: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الشفعُ الزوجُ، والوترُ اللهُ عز وجل (ابن كثير).. أي أن الشفع إشارةٌ إلى قوله تعالى أنه ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾.

"وقال أبو عبد الله عن مجاهد: الله الوتر، وخَلْقُه الشفعُ: الذكر والأنثى". (ابن كثير)

وقال ابن أبي نَجيح عن مجاهد: قوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: كل شيء خَلَقَه اللهُ شفْعٌ (ابن كثير).. ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. (ابن كثير)

"قال قتادة عن الحسن: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو العدد، منه شفْعٌ ومنه وترٌ (ابن كثير).. يعني الواحد وترٌ والاثنان شفعٌ والثلاثة وترٌ والأربعة شفعٌ وهكذا.

"قال ابن جرير: عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: "الشفعُ اليومان، والوترُ اليومُ الثالث" (ابن كثير).. أي أن الشفع والوتر إشارة الى قوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. ثم يقول إن رواية عبد الله بن الزبير

تتعارض مع روايته الأخرى التي قال فيها إن النبي ﷺ قال: الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة.

"قال أبو العالية والربيع بن أنس: هي الصلاة، منها شفْعٌ كالرباعية والثنائية، ومنها وتْرٌ كالمغرب فإنها ثلاث، وهي وتْر النهار؛ وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. (ابن كثير)

وقد نقل روايةَ عمرانَ بن الحصين الإمامُ أحمد: الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ قَالَ: هِيَ الصَّلَاةُ بَعْضُهَا شَفْعٌ وَبَعْضُهَا وَتْرٌ. (مسند أحمد)

هذه ثالث رواية نُسبت إلى الرسول ﷺ، ولكنها خلاف الروايتين الأوليين.

وقد وردت هذه الرواية في الترمذي وابن جرير عن رجال آخرين، كما رواها أبو داود. (ابن كثير)

**والليل إذا يسرِ:**

قال ابن عباس: وقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.. أي إذا ذهب.

ويقول ابن كثير: يمكن أن يراد به (والليل إذا أتى). وكأنه قَسمٌ بإقبال النهار وإدبار الليل. وهذا يعني أن ابن كثير يرى أن الآية تتحدث عن ذِكْر إقبال الليل، لأن إدبار الليل مذكور في قوله تعالى ﴿والفجر﴾، إذ يأتي الفجر بعد إدبار الليل دائما، وإلا فيصبح هذا تكرارا عبثا لا يليق بالقرآن الكريم. وقد ذُكر إقبال الليل أيضا في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فثبت من ذلك أن القَسم بالليل والصبح جائز. وقال الضحاك: والليل إذا يسر: أي يجري.

ملحوظة: هذه الأقوال كلها منقولة من تفسير ابن كثير.

هذه أقوال وآراء مختلفة نجدها في التفاسير حول هذه الآيات، وثلاثة منها منسوبة إلى الرسول ﷺ:

أولها: الشفع يوم النحر، والوتْر يوم عرفة.

وثانيها: "الشفع اليومان، والوترُ اليومُ الثالث".. أي أن الشفع والوتر إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

وثالثها: الصَّلاةُ بَعْضُهَا شَفْعٌ وَبَعْضُهَا وَتْرٌ.

إن اختلاف هذه الروايات فيما بينها يدل أن رَفْعَها إلى النبي ﷺ خطأٌ تماما، إذ كيف يمكن أن يقول الرسول ﷺ هذه الأقوال المتباينة في شرح ﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾. يبدو أن هذه آراء الرواة أنفسهم الذين ظنوا بسبب بعض الأحاديث ذات الوجوه المختلفة أن الرسول ﷺ ربما أراد بالشفع كذا وبالوتر كذا، فاختلفوا فيما استنبطوا، فلا يمكن نسبة أي من هذه المفاهيم إلى الرسول ﷺ بصورة قطعية. والدليل ما يلي: عن طلحة بن عبيد الله أنه دخل هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن على ابن عمر؛ فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال أبو سلمة: أليس هذه الليالي العشر التي ذكرها الله في القرآن؟ فقال ابن عمر: وما يدريك؟ قال: ما أشكّ، قال: بلى، فاشْكُكْ. (مسند أحمد، والنسائي، والحاكم، وفتح القدير، والدر المنثور)

لقد تبين من ذلك بوضوح أن الصحابة كانوا يعتبرون تفسيرهم للآيات رأيا شخصيا، وتصديق الآراء الشخصية ليس صحيحا. فلو أن الرسول ﷺ قد قال قولاً كهذا لما قال عبد الله لطلحة وهو يشير إلى قول الرسول ﷺ: بلى؛ فاشكْكْ.

الواقع أن هناك أحاديث عديدة عن فضل الليالي العشر من ذي الحجة، فنحن لا ننكر أنها ذات بركة وأهمية بحسب قول الرسول ﷺ، ولكن لم يرد في أي حديث أن المراد من ليال عشر هي هذه الليالي من ذي الحجة.

أما أقوال الناس عن الليالي العشر فهي كالآتي:

أولا: الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة.

ثانيا: الليالي العشر الأوائل من محرم.

ثالثا: الليالي العشر الأوائل من رمضان.

رابعا: الليالي العشر الأواخر من رمضان.

ثم هناك اختلاف كبير حول تحديد معنى الشفع والوتر أيضا، فبعضهم يقول هي الصلاة، وبعضهم هي العدد. ولو أخذناها بمعنى الصلاة أو الأعداد فلا خصوصية لليالي العشر بذلك، مع أن هذه الليالي مذكورة قبل الشفع والوتر. ورواية ابن عباس التي ذكرتها في الأخير هي أنها الليالي العشر من رمضان، قد بنا عليه أحد

المفسرين المعاصرين قائلا: أن الشفع والوتر هي ليلة القدر والليالي التسعة الأخرى، أو الوتر هو أول ليلة من هذه الليالي والشفع بقية الليالي. (بيان القرآن)

ودراسة هذه الآراء تكشف أنه ليس هناك بهذا الشأن قول ثابت من الرسول الكريم ﷺ الذي جاء بالشرع. وثانيا هناك اختلاف كبير بين آراء الصحابة أيضا، مما يدل بوضوح أنهم يفسرونها باجتهادهم فحسب، واجتهاد الصحابة ليس بأمر يقين، إذ قد فسر صحابي واحد الآية بقولين متعارضين أو ثلاثة. لا شك أنه لا ضير لو فسر المرء الآية حتى بأربعة معانٍ متجانسة غير متعارضة، ولكنه لو فسّرها بمعانٍ متعارضة، فلا بد من رفضها كلها، إذ فيه دليل على أنه لم يكن مطمئنا بها ومنشرحا لما قال، بل مال مرة إلى معنى وأخرى إلى آخر، وظن تارة أن هذا المعنى صحيح، وتارة اعتبر الآخر صحيحا. فاجتهاد الصحابة بهذا الشأن ليس قطعيا كما قلت، والدليل على ذلك قول ابن عمر لطلحة كما أشرتُ إليه من قبل. لا شك أن ابن عمر كان يفسر هذه الآية بمعنى، فلما سمع طلحة يجزم أن المراد من ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو الليالي العشر من ذي الحجة أخذته الحيرة فسأله عن الدليل الذي جعله يجزم بهذا المعنى. لا شك أن البعض يدعي أن أكثر السلف فسروا (ليال عشر) بمعنى الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة فقط، ولكن قول ابن عمر لطلحة المذكور آنفًا يدل على أن ما قالوه بهذا الشأن هو مجرد اجتهاد فقط؛ ذلك أن ابن عمر لم يكن منكرا للدين حتى يُفهَم من قوله هذا أنه يريد تشكيك طلحة في صدق الإسلام، وإنما المراد من قوله لطلحة كيف تجزم أن قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إشارةٌ إلى الليالي العشر من ذي الحجة يقينا، إنه طريق غير صحيح؛ تعالَ أحوِّلْ يقينك هذا إلى الشكّ بقوة أدلتي. فقول ابن عمر هذا دليل على أن السلف قد فسروا هذه الآيات بناء على اجتهاداتهم فقط، والاختلاف الشديد بين آراء الصحابة وأقوال التابعين يشهد على هذه الحقيقة.

وقد يقول قائل هنا: صحيح أن هناك اختلافات شديدة بين هذه الأقوال، ولكن لماذا لا نرجح بعضها لحسم القضية؟ ما دمنا سنفسر الآية بالاجتهاد فقط، فلماذا لا

نعتبر أحدها صحيحا؟ لماذا نرفضها كلها؟ إن الطريق لدفع هذا الاختلاف أن نرجح أحد الأقوال.

هذا الحلّ كان ممكنًا لو حُلّت به دلالات هذه الآيات، ولكن الأمر ليس كذلك. فنحن نرى أن أكثرهم مالوا إلى أن (ليال عشر) هي الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة، ولكنهم لم يذكروا – لدى هذا التفسير – تأويلا معقولا لقوله تعالى ﴿والفجر﴾. لو أن الله تعالى ذكر هنا (ليال عشر) فقط، لقلنا –مثلهم– إنها الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة، ولكنه تعالى قال معها وقَبْلَها ﴿والفجر﴾ حيث قال ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. أي نقدم الفجر كشهادةٍ ونقدّم معه ﴿ليال عشر﴾ كشهادة. فلو كان المراد هنا الليالي العشر من ذي الحجة، فالسؤال: ما هو المراد من الفجر هنا؟ لو كان المراد آخر فجر الليالي العشر، فالسؤال: ما هو الأمر الذي استُشهد بالفجر عليه؟ وما هو الحكم الشرعي الهام الخاص بصبح الليلة العاشرة من ذي الحجة، حتى يشكل شهادة على قدرة الله أو على صدق دينه؟ ثم ما الحكمة من مجيء الفجر بعد الليالي العشر وقد ذُكِر قبلها؟ لو ذكرت هنا ليال عشر فقط اعترفنا بدون تردد أن الله تعالى قد ذكر هذه الليالي لأنها تشير إلى واقعة تضحية إبراهيم عليه السلام حيث وعده الله وعدًا فوفّاه، ووهب لابنه حياة وأقام بذلك آية أبدية للدنيا. هذا الحادث كان عظيم الشأن، وقد أثبت الله به للعالم أنه يفي ما يعد به عبادَه رغم الظروف غير المواتية، فيكتب لهم العزة والفلاح في الدنيا. لقد أسكن إبراهيم عليه السلام ابنه بأمر الله تعالى في واد غير ذي زرع، حيث كانت حياته مهددة بالخطر في كل لحظة، متوكلاً على ربه الذي أخبره سلفًا أن تضحيته هذه لن تضيع هدرا، بل سيجعل الله مكة موئلا للخلائق ويجعل هذه الآية دائمة أبدية إلى يوم القيامة. لو احتفلنا بهذه الواقعة فلا شك أنه ابتهاج بالدليل القوي على قدرة الله تعالى، ولو قدمنا هذا الحادث أمام العالم، فالأحمق وحده الذي ينكره ويقول إنه ليس دليلا على جلال الله وعظمته. لو كان هنا ذكر (ليال عشر) فقط سهل الأمر جدا، وقبلتُ بدون تردد أنْ المراد هنا الليالي العشر من ذي الحجة لأنها

تشير إلى تضحية إبراهيم العظيمة التي قدّمها بإذن الله تعالى. ولكن القضية أن الله تعالى قد ذكر هنا الفجر أيضًا مع الليالي العشر.

ولو قيل إن المراد من الفجر فجرٌ آخر، فيجب أن يخبرونا أي فجر هو! ولو قالوا إنها فجرُ آخر ليلة من الليالي العشر، فالسؤال ما هي الخصوصية في هذا الفجر حتى يذكره الله على حدة؟ ثم لماذا ذُكر الفجر قبل الليالي العشر؟ إن فضل الليالي العشر أمر مفهوم، إذ ينوي فيها المرء تقديم هذه التضحيات، ثم يهيئ الأسباب حسب نيته، ثم يحين وقت هذه التضحية، وعليه فلو اعتبرنا كل هذه الأيام مباركة بدلاً من يوم النحر فلا حرج في ذلك، ولكن السؤال: ما هي الميزة التي توجد في فجر آخر هذه الليالي العشر حتى نقدّمه أمام الكفار ونقنعهم أن هذا الفجر آية عظيمة على قدرة الله؟ هذا أمر لم يذكره أي من المفسرين ولم أفهمه أنا أيضا. لا شك أن في الليالي العشر آية يمكن تقديمها أمام الكفار بالأدلة، ونقنعهم بها بقدرة الله، ولكن لا نرى في هذه الحالة أي صلة بين (ليال عشر) و(الفجر).

ومع أن المفسرين يفسرون (وليال عشر)، لكنهم لا يبيّنون معه المراد من (الشفع والوتر) اللذين اعتبرهما الله آية وقدّمهما هنا كشهادة. يجب أن يكون في (الشفع والوتر) ما يُقدَّم كدليل على وجود البارئ تعالى، أو ما يمكن تقديمه للناس كشهادة على آية من آيات الله. أما قولهم إن (الشفع والوتر) إشارة إلى قول الله تعالى بأنه يمكنكم أن ترجعوا من مِنى بعد يومين أو ثلاثة، فيجب أن نتذكر أن هذا حُكم رباني وليس آية ومعجزة، أو دليلا على قدرة الله؛ فكيف يكون في الحُكم المجرد حجة على الكافرين؟ وعندي لو عُرض هذا الأمر على أشد الناس سفاهةً لضحك وقال: أي دليل في هذا على وجود الله وعلى قدرته؟ وما هو الشيء الخاص في الإقامة هنا ليومين أو ثلاثة أيام حتى يستشهد الله به مقسمًا؟ يجب أن لا ننسى أن الله تعالى لم يَذْكر هنا الشَّفْع والوتر ذِكرًا عاديًّا، بل قال إننا نقسم بالشفع والوتر، مما يدل أن هناك شفعًا يكون حجة على الكفار، وأن هناك وترًا يكون حجة عليهم، أو أن الشفع والوتر معًا سيكونان حجة على الكفار. ولكن هذه الأمور الثلاثة لا توجد في أي شفع ولا وتر من العشر الأواخر من ذي الحجة.

ثم هناك اعتراض آخر يرِد على المعنى الذي ذكره المفسرون ونسبوه إلى الرسول ﷺ، حيث يذكرون فيه الوتر قبل الشفع، مع أن القرآن ذكر هنا الشفع قبل الوتر إذ قال ﴿والشَّفْعِ والوَتْرِ﴾.

ثم إنهم فسّروا الشفْع بمعنى العاشر من ذي الحجة، والوتر بمعنى التاسع منه، والجميع يعرف أن عدد التاسع قبل العاشر.. أي أنهم يعكسون الترتيب القرآني حيث ورد الشفع أولاً ثم الوتر لكنهم يذكرون الوتر أولاً والشفع بعده. كما أنهم لم يذكروا أي سبب لهذا التقديم والتأخير.

وقد يقول قائل إن هذا التقديم والتأخير من أجل الوزن، ولكنا لسنا لنقبل أن القرآن يقدم ويؤخر من أجل الوزن والسجع فقط. فما داموا قد قدّموا الوتر على الشفع فيجب أن يأتوا بدليل، ولكنهم لم يأتوا به.

ثم هناك سؤال آخر: ما المراد من قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.. إذا كان المراد من الليالي العشر.. العشر من ذي الحجة، فما هو هذا الليل الذي قيل عنه إنه يسري؟ الليل يكون ما بين المساء والصبح، وما دامت هذه الليالي مذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ فما هو هذا الليل الجديد الذي قيل عنه أنه يسري أو أنه يأتي؟ أو أي ليل هو من بين هذه الليالي العشر حتى أُشيرَ إليه خاصةً؟ وإذا كان هذا الليل واحدًا من الليالي العشر، فلماذا ذُكر منفصلاً بعد ذِكر الشفع والوتر؟ لماذا فُصل خاصة عن الليالي العشر بإيراد الشفع والوتر بينهما؟ ثم ما دام الله تعالى قد ذكر ﴿ليال عشر﴾ من قبل، فهذا تضمن ذكر انقطاع تلك الليالي العشر، بل قد ذُكرتْ من قبل كلمة ﴿الفجر﴾ أيضا التي تشير إلى انقضاء هذه الليالي، فلماذا قال الله تعالى مع ذلك: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟ ولو قيل في الجواب: المراد منه: والليل إذا أتى، فيصبح الأمر أكثر طرافة، لأن الليالي العشر أتت وذهبت، فلماذا بدأ الله الحديث مرة أخرى عن الليلة الأولى منها بعد الانتهاء من ذِكرها، بل وبعد الحديث عن أيام مِنى بقوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾؟ لو كان مجيء هذه الليلة الأولى آيةً فقد جاء ذكر هذه الآية ضمن الليالي العشر، وإذا كانت في الليالي العشر آية فقد انتهى ذكرها إذ بدأ بعدها الحديث عن الشفع والوتر؛ فلماذا ذُكرت الليلة الأولى منها مرة أخرى؟ ولو قيل أنها

ذُكرت لإعادة موضوع الفجر فالسؤال: ما هو الأمر الذي لم يُذكر في قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ﴾ حتى أُشير إليه بقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟

ثم السؤال: إذا كان المراد من هذا الليل أول ليلة من الليالي العشر من ذي الحجة، فما هي الخصوصية في فجر أول ليلة منها؟ قال البعض إن المراد هنا هو فجر آخر ليلة منها. ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا، إذ لا قيمة أن يكون الفجر هو فجر الليلة الأولى أو الأخيرة منها. إنما السؤال هنا: ما هي خصوصية تلك الليلة حتى تُذكر ذكرًا منفصلا؟ وما هو الأمر الخاص في فجر أول ليلة وآخر ليلة من ذي الحجة الذي يمكن أن تقام به الحجة على الكافرين؟ أو يكون دليلا على قدرة الله تعالى؟ ما دام القَسم لتقديم الشهادة على شيء فما هو الأمر الخاص الذي استُشهد عليه بفجر أول ليلة وآخر ليلة من هذه الليالي؟ وما هو الأمر الخاص الذي تشهد هذه الليالي عليه؟ لقد قلتُ من قبل إننا لو اعتبرنا هذه الليالي دليلا على صدق إبراهيم عليه السلام بسبب أيام الحج فيها، لكان ذلك معقولا، ولكن يبقى السؤال في مكانه، علامَ يشهد فجر الليلة الأولى أو الأخيرة منها؟ أو ما هو الموضوع الذي تكمّله هذه الشهادة؟ نحن نسلّم أنه إذا استُشهد بكل الشيء على أمر فليس ضروريا أن يقدَّم كل جزء منه كشهادة منفصلة، ولكن إذا استُشهد بالكل أولاً، واستُشهد ببعض أجزائه قبله وبعده منفصلا، فلا بد أن المقصود الاستشهاد على شيء زائد. ولكن المفسرين لا يذكرون أي أمر خاص زائد استُشهد عليه بقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ منفصلا. ولو قيل إن هذه الأجزاء الأربعة لا تُقدّم شهادات منفصلة، بل تُقدّم معًا شهادة واحدة، فنحن مستعدّون لقبول ذلك أيضا، ولكن السؤال ما هي الشهادة التي يقدمها الفجر والشفع والوتر والليل إذا يسري مع ذكر الحج؟ إذا لم نربط الفجر مع ليال عشر، فما هو النقص الذي يبقى في الوفاء بعهود الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام؟ ولو لم يُذكر (الشفع والوتر) هنا فأي أمر ظلّ خفيًّا؟ ولو لم يذكر (والليل إذا يسر)، فأي نقصان حصل في شهادة الليالي العشر ومعجزتها؟

نحن نعترف ونقرّ أن الدليل يُقدَّم مجزَّأً أحيانا ليؤكد كل جزء منه على أجزائه الأخرى، ليصبح الدليل أقوى وأوضح وأبرز، ولكن لا يجزَّأ الدليل إلى أجزاء بدون سبب. فلو تضمنَّ الفجر والشفع والوتر والليل إذا يسري بعض خصوصيات (ليال عشر) لقبلنا هذا بلا تردد، وقلنا إن هذه الأشياء الأربعة –رغم كونها جزءًا من الليالي العشر– قد ذُكرت منفصلة عنها لإبراز أهميتها والتأكيد عليها. ولكن المؤسف أن المعنى أو التأويل الذي يذكره المفسرون لليال عشر لا يبقى الفجر فيه جزءًا من الدليل ولا يعطي الشفع والوتر فيه أي معنى، كما لا يبدو هناك أي مفهوم لقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، بتعبير آخر إنهم يفسرون هذه الآيات بما لا يتفق مع السياق.

والتأويل الثاني لقوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو الليالي العشر من محرم.

هنا أيضا لو اكتفى الله تعالى بقوله ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ لانطبق هذا التأويل هنا وسلَّمْنا بصحته إذ ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه في يوم عاشوراء قد انتصر موسى عليه السلام على فرعون، ونجّاه الله من البحر.. وأن حادثا مماثلا سيقع في أمتي أيضا في المستقبل. ✪

إذن، فكما أن واقعة تضحية إبراهيم عليه السلام تنطبق على الليالي العشر، كذلك يمكن اعتبار قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إشارةً إلى الواقعة العظيمة التي حصلت مع موسى عليه السلام، ولا يمكن الاعتراض على ذلك، وفي هذه الحالة يراد بالفجر صبح الليلة العاشرة من محرم حين خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر

---

✪ ما ورد في الحديث هو: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوا (البخاري: كتاب الصيام). وفي رواية: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صُيَّامًا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ. فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ" (ابن ماجه: كتاب الصيام).

فلعل حضرة المفسر ﷺ يشير إلى عموم حديث الترمذي: لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ. (الترمذي، أبواب الإيمان) (المترجم)

وغرق فرعون في البحر، بينما يراد بالليالي العشرِ العشرُ الأوائل من محرم، حيث قضاها موسى عليه السلام في النقاش مع فرعون، وفي أخذ الأهبة للسفر، ونجا فيها بنو إسرائيل من ظلم فرعون تحت قيادته عليه السلام. وهكذا تصبح هذه الليالي كلها آية ربانية عظيمة.

ومع ذلك يبقى السؤال التالي بدون جواب: ما علاقة الشفع والوتر بهذا الحادث؟ ثم لو كانت الليالي العشر إشارة إلى واقعة موسى عليه السلام، فما معنى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ في هذا السياق؟ ثم ما علاقة هذا الليل الذي يسري بالليالي العشر من محرم وبواقعة موسى هذه؟ لو ذُكر هنا الفجر والليالي العشر فقط ما كان هناك مبرر معقول لرفض هذا التفسير، لأن واقعة موسى عليه السلام يمكن أن تنطبق عقلاً على قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، كما أن تضحية إبراهيم عليه السلام يمكن أن تنطبق عقلاً على الليالي العشر من ذي الحجة وعلى يوم النحر؛ وما وسع أحدًا إنكار أهمية هذا الحادث، بل لاعتباره كل شخص شهادة هامة، ولاعتبر هذا القَسَمُ قَسَمًا هامًّا يزيد المعرفة. ولكن المشكلة أن الأمر ليس كذلك، لأن الآيتين التاليتين ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ تمنعان من قبول هذا التفسير.

والتأويل الثالث الذي ذكروه هو أن قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يعني الليالي العشر من رمضان.

فأولاً هناك اختلاف في الروايات، فبعضها تقول إن المراد من (ليال عشر) العشرُ الأوائل من رمضان، وبعضها تقول إنها العشر الأواخر منه؛ ومع ذلك فَسَواء أكان المراد منه العشر الأوائل أم الأواخر من رمضان، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما الذي تشهد عليه هذه الليالي من رمضان؟ يجب أن لا ننسى أن هذه السورة من أوائل السور نزولا بلا خلاف عند أصحاب الرأي، بينما فُرض صيام رمضان في المدينة في السنة الثانية الهجرية (تاريخ الطبري). فهل من عاقل يقبل هذا التأويل بعد ذلك؟ هل يمكن أن يخبرني أي مفسر كيف يُعتبر القولُ إننا سنقول لأتباعنا بعد اثني عشر عامًا أن يصوموا شهر رمضان دليلاً على وجود الله وعلى قدرته؟ إن الأمر بالصيام يمكن أن يصدره أحد البشر أيضا، فبوسع أي من المفترين أن يأمر

أتباعه بالصوم، وكان بوسع مسيلمة الكذاب أن يضع شريعة مزورة من عنده. علينا أن نرى ما إذا كان مثل هذا الكلام حجة على الكافرين؟

ألا يبدو غريبًا – في حالة قبول هذا التأويل– أن يقدّم الله تعالى ليالي رمضان حجة على الكفار، مع أن صيامه لم يكن قد فُرض بعد؟ فقد كان الرسول ﷺ يصوم العشر الأوائل من محرم اقتداءً باليهود الذين كانوا يصومونها لأن الله تعالى نجّى فيها موسى عليه السلام من فرعون. وعندما نزل الحكم بصوم رمضان ترك صيام العشر من محرم. فالسؤال هنا: ماذا فَهِمَ المسلمون والكفار من القَسم بصيام لم يكن قد فُرض بعد، ولم يعرفه المسلمون ولا الكافرون؟ وما قيمة تقديمه كشهادة؟ وكيف يكون حجة على الكافرين؟

قد يقول قائل هنا: لا شك أن صوم رمضان فُرض في المدينة بعد نزول سورة الفجر باثني عشر عاما، ولكن ذِكْر ليالي هذا الصيام أو القَسمَ بليالي رمضان قبل هذا الموعد ليس محلّ اعتراض، إذ إن القرآن نفسه قد أقسمَ بأحداث كثيرة قبل وقوعها، كقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾(التكوير:٢).. أي سيأتي يوم تكوّر فيه الشمس، بمعنى أن الناس سيتركون طاعة النبي ﷺ، أو أن الأنوار المحمدية سوف تُحجَب أشعّتها، أو أن الشمس والقمر تنكسفان. فمتى وقعت هذه الأحداث في حياته ﷺ؟ الجميع يعرف أن هذه الأنباء إنما وقعت بعد مدة مديدة، ومع ذلك أقسمَ الله بها. كذلك قال الله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾(التكوير:٨)، وهي نبوءة عن اختراع القطار والتلغراف والمذياع وغيرها مما سيقرّب الناس كأنهم في مكان واحد، وقد تحققت هذه الأنباء بعد زمن طويل، ومع ذلك أقسم الله بها. فما الغرابة في أن يقسم الله بليالي رمضان، وإن لم يكن صيامه قد فُرض إلا بعد اثني عشر عاما؟

والجواب أنه مما لا شك فيه أن القرآن قد أقسمَ بأحداث مستقبلية، ولكنها كلها تتعلق بالغيبيات، إذ هي أنباء تتعلق بالمستقبل. والنبوءة لا تكون في خيار العباد وقدرتهم، أما صيام رمضان فهو أمر وليس نبأً، وكما قلتُ فإن إمام أي فرقة أو طائفة يمكن أن يأمر أتباعه بأي شيء، ولا علاقة لهذا بعلم الغيب. فمثلاً كنتُ

قد قدّمتُ لجماعتنا مشروعًا باسم "تحريك جديد" عام ١٩٣٤، فلو قلتُ قبلها بسنتين أنني سأقدّم لكم مشروعًا باسم "تحريك جديد"، ثم أنشأته فعلاً بعد عامين، ثم قلتُ للناس انظروا إلى هذه الآية العظيمة، إذ تحقق ما قلت قبل سنتين، لضحك مني الجميع، وقالوا: أي آية في هذا؟ لقد خطّطتَ لشيء من عند نفسك، ثم أمرتَ به أتباعك حين شئت. أو مثلا: أقول لكم من حين لآخر سأدعوكم لصيام ٧ أيام تطوعًا في موعد كذا، وعندما حان هذا الموعد دعوتُكم إلى الصيام تطوعًا فصمتم؛ فهل في هذا أي آية ربانية؟ وهل أستطيع القول إنها معجزة عظيمة ظهرت على يدي؟ أو أنه حادث يدل على وجود البارئ تعالى؟ كلا، أبدًا. كذلك إذا كان صيام رمضان قد أُخبرَ عنه على هذا النحو -كما يزعمون- فأي حجة فيه على الكافرين؟ نحن المسلمين نؤمن أن كل ما في القرآن قد نزل من عند الله تعالى، ولكن الكافر لا يصدق ذلك، بل يقول إنه من افتراء محمد (ﷺ) الذي عرضه على الناس كأنه وحي من الله تعالى؛ فكيف يمكن -والحال هذه- أن يكون حجةً على الكافرين القولُ إن صيام رمضان سيُفرض عليكم بعد ١٢ سنة، وأن لياليها العشر ستكون ذات أهمية كبرى؟ فإن الخصم سيقول إن محمدا (ﷺ) نفسه قد أعدّ هذه الخطة من عنده، ثم نفذها في حينها، ثم قال للناس انظروا إلى هذه الآية الإلهية العظيمة على صدقي، مع أنه ليس في ذلك أي آية، إذ يمكن أن يفعل ذلك أي إنسان.

فمن الخطأ القول إن الله تعالى قد أقسمَ هنا بالليالي العشر من رمضان كما أقسم بأحداث مستقبلية في آيات أخرى. إن أمر صيام رمضان من خيار البشر، لأن إعلان المرء عن خطته قبل تنفيذها ببضع سنين لا يشكل أي آية، أما الإخبار عن أحداث مستقبلية ليست بوسع الإنسان وخياره فليس فيه أي افتراء من الإنسان. وحيثما أقسمَ القرآن إنما أقسمَ بالأحداث التي كانت ستقع في المستقبل، والتي لم يقدر عليها محمد ﷺ ولا أمته، والتي كانت آيات عظيمة على وجود البارئ تعالى وقدرته وعلمه. فمثلاً قال الله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.. أي أن الشمس والقمر سينكسفان. فمتى كان انكسافهما في قدرة محمد ﷺ؟ أو قال الله تعالى

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.. حيث أخبر عن اختراع القطار والتلغراف والبريد وما إلى ذلك، فمتى كان اختراعها في قدرة محمد ﷺ؟ كل إنسان يفهم أن تحقيق هذه الأنباء ليس بوسع إنسان، بل الله وحده القادر على تحقيقها، ولذلك قُدِّمت هذه الواقعات كشهادة على وجود البارئ تعالى. باختصار، إن الأقسام القرآنية التي أقسم الله بها تتعلق بأمور تُظهِر قدرةَ الله وقوته، سواء أكانت هذه الأمور تتعلق بالمستقبل أم بالماضي.

لقد قال أحد المفسرين المعاصرين أن الله قد استشهد بالليالي العشر الأواخر من رمضان، لأن الصوم في هذه الأيام يزيد تقوى المرء وروحانيته بوجه خاص. (بيان القرآن)

ولكن السؤال: هل يصدّق الكافر أيضا أن الصوم يزيد تقوى المرء وروحانيته؟ كلا، إنه لن يصدّق ذلك، ولو صام أحد هذه الأيام العشر أو رمضان كله، بل حتى لو صام خمسين سنة على التوالي. فالأمر الذي لا يصدّقه الكافر كيف يُعرَض عليه كشهادة؟ لأنه سيقول هذا كذب مبين، لأن الصيام لا يزيد في روحانية أحد.

إذن، يقسم الله تعالى بأحداث المستقبل التي تشهد على قدرته تعالى بحيث تكون حجة على أعداء الدين، أو يقسم بأحداث من الماضي شكّلتْ الآيةَ على وجود الله تعالى وعلى قدرته. ومثال الأحداث الماضية حادث تضحية إبراهيم عليه السلام ووفاء الله لوعوده، وحيث إنها ثابتة تاريخيا، فلا يسع الخصم إنكارها، فلذلك تُقدَّم أمامه لإقامة الحجة عليه. أما ارتقاء المرء روحانيًا فهو أمر لا يراه حتى الصديق، ناهيك أن يُقدَّم أمام الخصم كحجة. فليس صحيحًا مطلقًا أن الله قد أقسم بليالي رمضان هنا كما أقسم بأحداث مستقبلية، إذ شتّان بين الأمرين! إن القرآن قد أقسم بأحداث تدل على علم الغيب، مثل كسوف الشمس ونهضة الجماهير ودمار الملوك وغيرها، والإنباء عنها قبل موعدها دليل عظيم على قدرة الله يقينا، أما الإعلان عن فرضية صيام رمضان فليس فيه أي علم بالغيب؛ إذ يمكن لكل إنسان أن يأمر جماعته بأمر قبل موعده، وليس في ذلك أي دليل على صدقه. كان الأمر بالصيام فِعْل محمد رسول الله ﷺ ومجرد عبادة في نظر الكافرين، والإخبار عن فرضيته قبل موعده لا

يشكل أي فائدة للكافرين. فثبت أنه لا يُقدَّم أمام الكفار كدليل على قدرة الله وآية عظيمة منه إلا ما فيه علم الغيب. فمثلا أنبأ المسيح الموعود عليه السلام عن زلزلة الساعة (التذكرة ص٤٥٠)، وهو خبر لا يقدر إنسان على تحقيقه، وتقديمه دليلا على وجود الله وقدرته أمر سليم.

ومثال آخر هو قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ﴾(التين:٢-٣) حيث أقسم الله تعالى -بدلاً من أحداث مستقبلية- بأحداث من الماضي تضمنت علم الغيب بحيث لا يمكن لخصم إنكاره، أو مثاله قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾(التكوير:٢-٤)، وهي أيضا أنباء مستقبلية كلُّها تتضمن علم الغيب وتقدِّم دليلا على قدرة الله تعالى. ولكن ليس في القَسَم بحكم من الأحكام أي إظهار لقدرة الله تعالى. وحيث إن القَسَم بليالي رمضان لا يتضمن أي علم بالغيب، ولا أي إظهار لقدرة الله تعالى، فهو عبث، والقرآن منـــزه عنه.

باختصار، لو اعتبرنا ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إشارةً إلى واقعة إبراهيم عليه السلام أو إلى حادث نجاة موسى عليه السلام، لكان معقولا، ولكن لا حكمة في اعتبارها إشارة إلى العشر الأواخر أو الأوائل من رمضان. لا شك أن أخبار الغيب -سواء التي تحققت في الماضي أو التي ستقع في المستقبل- تزيد الإيمان، فمثلا وعد الله موسى عليه السلام بغلبته وقومه على فرعون (خروج ٧: ١-٧)، فأنجز وعده وأغرق فرعون ونجّى بني إسرائيل من ظلمه، وهذا حادث من الماضي، ولكنه محفوظ في التاريخ، ويمكن تقديمه على العدو كحجة؛ لو قدّمته اليوم أمام أحد لوجد فيه دليلا حيًّا على وجود الله تعالى. لا شك أن موسى عليه السلام قد توفي، وأن فلسطين قد خرجت من أيدي اليهود، ومع ذلك فحينما تعرض هذه الأحداث اليوم على أي من السيخ أو الهندوس مثلاً، يتأثر بها حتما، ويعترف أن من الحقائق الثابتة تاريخيا أن موسى كان عبدا ضعيفا عديم الحيلة، ولم يكن قومه بنو إسرائيل يملكون حيلة إزاء فرعون، فكان يعاملهم كيفما شاء، إلا أن الله تعالى وعد عبده الضعيف موسى أن ينصره، ثم أنجز وعده معه بالفعل رغم الظروف غير المواتية، ففشل فرعون في هدفه رغم

قوته وجنوده وعتاده ومات خائبا خاسرا، ونجح موسى مع أتباعه كما وعد الله. هذا حادث من الماضي ولا شك، ولكن شهادة التاريخ تجعله حادثا رائعا بحيث تتراءى قدرة الله تعالى أمام من يقرؤه ويطلع عليه.

وبالمثل قد لحِق إبراهيم عليه السلام بالأموات، ونبوءاته صارت قصة من الماضي، إلا أن التاريخ قد حفظها. عندما نرجع إلى زمن إبراهيم وننظر من هناك إلى المستقبل.. أي حين ننظر إلى بعثة الرسول ﷺ من منظور زمن إبراهيم، لا من منظور الزمن الحاضر، ونفكر فيما إذا كان الإدلاء بمثل هذه النبوءة بوسع إبراهيم، يغمرنا اليقين أن هذه آية إلهية عظيمة قاهرة ظهرت بواسطة إبراهيم عليه السلام.

إذن، فبعض أحداث الماضي تكون دليلا على قدرة الله تعالى، لأننا حين ننظر إليها من منظور ماضيها نجد فيها آية عظيمة، أما الأنباء المستقبلية فهي آية عظيمة بلا شك، لأن تحقُّق نبوءة يشكّل آية حيّة على وجود البارئ وقدرته وجلاله وعظمته. أما صيام رمضان فلم يكن الحُكم به قد نزل بعد، فليس في القَسَم به أي هدف من الأهداف التي نراها في الأقسام الإلهية القرآنية.

ولو غضضنا الطرف عن هذا السؤال الأساسي، فلا تزال هناك أسئلة أخرى كما ذكرتُ من قبل، منها: أي شهادة في فجر بعض الليالي الأوائل من رمضان حتى يُذكَر هنا منفصلا فيقال ﴿والفجر﴾؟ ثم ما علاقة الشفع والوتر في هذا السياق؟ ثم أي ليل من هذه الليالي الذي قيل عنه ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟ وما هي الشهادة الموجودة في هذا الليل؟ أما إذا كان المراد من (ليال عشر) العشر الأواخر من رمضان، فما هو المراد من (الفجر) في هذا السياق؟ أهو فجر إحدى الليالي العشر الأوائل من رمضان أم فجر إحدى الأواخر منه؟ لا شك أن هناك معقولية في أن يراد بـــ ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ العشر الأوائل أو العشر الأواخر لكونها ذات سمة خاصة، لأن العشر الأوائل عظيمة من حيث إن رمضان يبدأ بها، والليالي العشر الأواخر عظيمة لأن رمضان ينتهي بها، ومع ذلك يبقى السؤال هنا: أي فجر من هذه الليالي يحمل خصوصية بحيث أقسم الله به، ويمكن أن تقام به الحجة على الخصم وإقناعه بقدرة الله تعالى؟

ويقول البعض إن المراد من الفجر هنا فجر ليلة القدر التي قال الله تعالى عنها ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(القدر:٦).. أي أن ليلة القدر تستمرّ حتى مطلع الفجر (بيان القرآن). ولكن المشكلة أن ليلة القدر هي المباركة وليس فجرها، إذ تنتهي بركاتها عند الفجر. فلماذا أقسمَ الله بفجرها إذن؟ أليس غريبا أن لا يُقسِم الله تعالى بليلة القدر التي هي مباركة ويُقسِم بالفجر مع أنه ليس فيه شيء هام وليس فيه بركة خاصة؟

ثم إذا سئلوا: ما علاقة الشفع والوتر بالعشر الأواخر من رمضان، قالوا: المراد من الوتر ليلة القدر، لأنها تكون ليلةً وترًا.

ولكنا نقول: لم يستشهد الله تعالى بالوتر فقط، بل بالشفع والوتر معًا، فإذا كان الوتر هنا يعني الليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان، والشفع يعني الليالي الشفع من العشر الأواخر، فمعنى ذلك أن خمسًا منها وَتْر وخمسًا منها شَفْع، أو إذا لم تكن هذه الليالي عشرًا – لأن شهر رمضان يكون أحيانا ٢٩ ليلة – فتكون الليالي الشفع خمسًا والليالي الوتر أربعًا. إذن، فإما أن يراد هنا بالشفع والوتر كل ليالي الوتر أو كل ليالي الشفع. فإذا قالوا إن المراد من الوتر هنا ليلة القدر بالتحديد فيجب أن تكون ليلة الشفع ليلة محددة من بينها، ولكنهم يقولون إن ليلة الوتر هي ليلة القدر فقط، وهذا غير مقبول لأن في العشر الأواخر ليالي أخرى هي وتر.

ثم هناك سؤال آخر: لماذا أقسم الله تعالى بالليالي العشر كلها، مع أن ليلة القدر هي واحدة منها؟ وإذا كانت ليلة القدر ليلة واحدة فقط فبأي قرينة حدّدوها من بين الليالي الوتر الأخرى؟

وسؤال آخر: لماذا أقسم الله بالشفع أيضا؟ ما دامت ليالي الوتر والشفع كلها مباركة، فلماذا ذكر الله تعالى الوتر منها منفصلةً عن الشفع؟

ثم إن هذه الليالي – الشفع والوتر – كلها متضمنة في ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾، فلماذا ذكر الله بعد الليالي العشر ليالي الشفع والوتر منها منفصلة عنها؟ أي فائدة في ذلك؟

وأخيرا سؤال آخر: ما هو المراد من قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ في هذا السياق؟ لقد تضمن قول الله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ الليالي العشر الأواخر كلها، فلماذا ذكر الله تعالى بعدها الليلة الحادية عشرة بقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟

لو قيل إن المراد من مجموع الليالي المذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وفي قوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ هي ليالي الاعتكاف فلا يستقيم المعنى أيضًا، لأنها إما أن تكون عشرًا أو تسعًا، لا إحدى عشرة ليلة، وإن كان عدد النهار يبلغ أحد عشر نهارًا في بعض الأحيان.

إذن، فلا ينطبق أي من هذه المعاني على هذه الآيات القرآنية على ضوء السياق، إذ يرِد على كل واحد منها اعتراضات كبيرة شتى.

والآن أذكر المعاني التي فهَّمني الله تعالى عندما رفعتُ رأسي من السجود الأخير من صلاة العصر يوم الأربعاء كما ذكرتُ.

لقد ذكر الله هنا أربعة أشياء:

أولا: ﴿وَالْفَجْرِ﴾

وثانيا: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

وثالثا: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾

ورابعا: ﴿واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

وهذه الأقسام الأربعة يمكن أن تكون بثلاثة طرق:

فإما أنها أربعة أجزاء مهمّة من واقعة واحدة.. أعني أن تكون هذه الآيات تتحدث عن واقعة واحدة، حيث تذكر كلاً من أجزائها الأربعة منفصلا، وهذا جائز تماما. لقد قلتُ من قبل إن بإمكاننا قبول المعاني التي ذكرها المفسرون شريطة أن تكون الأمور الأربعة منسجمة بعضها مع بعض، ولكن المعاني التي ذكروها لا تنطبق على الآيات كلها معًا، لذا لا نقبلها.

وإما أنها أربع واقعات منفصلة. فلو ثبت أن قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ﴾ يشير إلى حادث، و﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يشير إلى حادث ثان، و ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ يشير إلى حادث ثالث، و﴿واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ يشير إلى حادث رابع، فيكون هذا تأويلا معقولا

مقبولاً شريطة أن تكون هذه الأمور الأربعة ذات صلة بأحداث هامة ويوجد بينها رابط يجعلها منسجمة.

وهناك صورة أخرى: أن تُعتبر هذه الأمور مجموعتين أو ثلاثة.. حيث يشكل أمران منها مجموعة منفصلة، وأمران آخران مجموعة أخرى منفصلة. أو يُعتبر قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ واقعة، و﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ واقعة أخرى، و﴿واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ واقعة ثالثة. وهذا التقسيم أيضًا لا بأس به.

فهناك صور ثلاث: فإما أنها واقعة واحدة ذات جوانب أربعة مهمة، أو أنها أربع واقعات منفصلة، أو أنها مجموعتان أو ثلاثة من الوقائع.

لقد مال المفسرون باتفاق إلى اعتبار هذه الأمور جوانب مختلفة من واقعة واحدة، فراحوا يطبّقون عليها (ليال عشر)، و(الشفع والوتر) أيضا.. كقولهم المراد منها الليالي العشر من محرم وفجره وصلواته؛ أو الأيام العشر من ذي الحجة ولياليه وفجره؛ أو الليالي العشر من رمضان وفجر واحد منها وليلة منها. ولكن قد سبق أن بينتُ أن تفاسيرهم هذه لا تغطي كل الجوانب من هذه الآيات، ولا تدل على حقيقة ثابتة واضحة.

أما الأمر عندي فهو كالآتي:

قد ذكر الله تعالى هنا فجرًا واحدًا وليالي عشرًا، مع أن في الليالي العشر عشرة من الفجر. ثم ذكَر الليالي هنا مرتين، مرة عشر ليالٍ، ومرةً ليلا واحدا يسري، وذكرَ بينهما الشفع والوتر. فلكي نصل إلى المعنى الصحيح لهذه الآيات علينا التدبر في هذا الأمر، أعني أن نفكر لماذا ذُكر هنا فجر واحد، ثم ليال عشر، ثم الشفع والوتر، وفي الأخير الليل الذي يسري. فكأن الله تعالى قد ذكر هنا فجريْن؛ الفجر الذي له علاقة بليال عشر، ثم واقعة الشفع والوتر، ثم الفجر المشار إليه في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ حيث ذكر أن هذا الليل يسري ويذهب، فكأنما أشار بذلك إلى طلوع فجر آخر. علمًا أن التركيز في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو على بيان أهمية تلك الليالي، أما في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فالتركيز فيه على زوال ذلك الليل وطلوع النهار.

وحيث إنه لا توجد في الدنيا ليال عشر لها فجر واحد، كما ليست هناك ليال عشر تقع بعدها واقعة الشفع والوتر، وليس هناك حادث شفع ووتر يليه ليلٌ يسري حتمًا.. فلا بد لنا من الإقرار أن لا علاقة لليالي المذكورة هنا بطلوع الشمس المادية ولا بغروبها، كما لا علاقة لليل الواحد الذي يسري ويزول إلى الأبد بالشمس التي تطلع من ناحية وتغيب من أخرى؛ وبالتالي لا بد لنا من القول إن كلمات الليل والفجر قد وردت هنا على سبيل الاستعارة لا الحقيقة.

باختصار، إن تقدير هذه الآيات كالآتي:

هناك عشر ليال، ثم فجر، ثم بعدها واقعة الشفع والوتر، ثم ليل وبعدها فجر طويل. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: الفجر يكون بعد الليل، فلماذا ذُكر الفجر هنا قبل الليالي العشر؟

الجواب أن الله تعالى قدّم الفجر هنا لأن فيه بشرى، فإنك حين تذكر لصديقك حادثًا مؤسفًا عاقبتُه محدودة، فإنك -من أجل تخفيف صدمته- تذكر له العاقبة المحمودة أولاً، ثم تحكي له باقي القصة المحزنة. فمثلا علمت أن صديقًا لك مصاب بمرض شديد، فذهبت لزيارته ووجدتَه في تحسن ملحوظ، فلما رجعت من عنده لقيك صديق آخر وأردت أن تخبره عن مرض صديقكما، فلن تبدأ بالحديث عن تفاصيل مرضه المؤلم، بل تقول: الحمد لله هو بخير الآن وقد زال الخطر، ثم بعد ذلك تذكر له تفاصيل المرض. لما وصلت شائعة استشهاد النبي ﷺ في غزوة أُحد إلى المدينة سارعتْ مجموعة من الأطفال والنساء إلى ساحة القتال، فلقوا في الطريق المقاتلين المسلمين وهم راجعون، فتقدّمَت سيدة إلى أحدهم وسألته في قلق شديد عن الرسول ﷺ، فبدلاً من أن يخبرها أنه ﷺ بخير والحمد لله، قال لها: إن زوجك قد استُشهد في القتال، فقالت: إني لا أسالك عن زوجي.. أخبِرْني كيف رسول الله ﷺ؟ فلما أخبرها أنه ﷺ بخير، لم تتمالك نفسها من فرط السرور وقالت: إذا كان رسول الله ﷺ بخير فكل مصيبة بعده جَلَلٌ.. أي لا أبالي بها (سيرة ابن هشام: غزوة أحد). فترى أن هذه السيدة أرادت أن تسمع الخبر السار أولاً، ثم الخبر المحزن. كانت تعلم أن رسول الله ﷺ لو كان بخير، لتحمل قلبها أي صدمة أخرى بسبب

هذه الفرحة، أما إذا كان ﷺ قد استُشهد فلن يطيق قلبها أي صدمة. إذًا القاعدة أن الخبر إذا كان مزيجًا من الفرحة والغم، يُبلَّغ المرءُ الجانبَ السار منه أولاً لكي لا يشقّ عليه الخبر المحزن. فلما كان تبليغ الخبر السار أولاً أنسبَ من أجل البشرى، قدّم الله هنا ذكر الفجر على الليالي العشر. لو ذكر الله تعالى الليالي العشر أولا، لارتجفت قلوب المسلمين بسماع هذا الخبر وأصابهم غمّ شديد وقالوا: لا ندري ماذا سيحدث الآن، فلذلك ذكر الله الفجر أولا، ثم الليالي العشر، ثم واقعة الشفع والوتر، ثم الليل الذي يسري ويذهب.. أي يأتي الصبح الطويل. هكذا نقَل القرآن الكريم الخبر بحيث تطمئن قلوب المؤمنين بدون أن تصاب بقلق كبير حول عاقبتهم؛ فقال تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ فكأنه طمْأن المسلمين أن لا داعي للقلق بسماع الخبر الذي يُخبَرون به، ولا يخافوا على عاقبتهم لأنها محمودة حتمًا، ولذلك ذكرنا الفجر قبل ذكر الليالي العشر.

علينا أن نرى ما هي تلك الأحداث التي أشير إليها في هذه الآيات؟ لو حاولنا معرفتها قياسًا وجزافًا معتمدين على عقولنا فقط، فلن نصل إلى نتيجة صائبة، بل سنخطئ كما أخطأ المفسرون القدامى. لذلك لا بد لنا من أن نؤكد هذه الأمور الأربعة على ضوء القرآن وتاريخ الإسلام والوقائع المهمة حتى نستطيع القول على وجه البصيرة أن القرآن الكريم قد أشار في هذه الآيات إلى هذه الأحداث، التي هي وثيقة الصلة بصدق الإسلام، وتنسجم مع ترتيب القرآن، ويمكن تقديمها أمام الكافرين كدليل على صدق النبي ﷺ وتتم بها الحجة عليهم. لو وجدنا هذه الأحداث من هذه المصادر، كما وجدناها منسجمة مع ترتيب هذه الآيات ودالة على صدق الإسلام والرسول ﷺ، فلا شك أنها هي المقصودة في هذه الآيات.

وكما قلتُ من قبل، قد تدبرت في هذه السورة كثيرًا وأمعنت النظر فيها طويلاً ولكن بدون جدوى، ثم إن الله تعالى نفسه ألقى في قلبي فجأة ما حُلّت به هذه الآيات تمامًا وانكشف مضمونها بكل جلاء.

لقد ذكرتُ من قبل أن الليالي العشر وإن كانت مذكورة هنا بعد الفجر لفظًا، ولكنها مذكورة قبل الفجر محلاً. كما أخبرت أيضا أنها ليست الليالي المعروفة، بل

سُميت ليالي على سبيل الاستعارة. وقلتُ أيضًا أن هذه السورة نزلت في أواخر السنة الثالثة من البعثة، حين لم تكن المعارضة المنظمة للإسلام قد بدأت بعد، ولم يكن الكفار قد وضعوا خطّة جماعية لسحق المسلمين وإبادتهم. كانوا يؤذونهم على الصعيد الفردي، وكان معظمهم يسخرون من الإسلام والمسلمين قائلين إنهم مجانين وسيعودون إلى صوابهم بعد قليل، وماذا يمكن أن يضرّنا هؤلاء الذين فقدوا صوابهم؟ إنهم سيسقطون بأنفسهم عما قريب. أما المعارضة المنظمة العَملية التي تعرض فيها المسلمون لتعذيب شديد، فلم تكن قد بدأت بعد. لقد أنزل الله تعالى هذه السورة بعد حوالي ثلاث سنوات من بعثة النبي ﷺ، حيث أخبر المسلمين وقال إنكم ستلقون الآن معارضة شديدة، وستخيّم عليكم ليالي حالكة من المصاعب والآلام ليلة تلو ليلة لن تروا فيها بارقة أمل، وتمتدّ هذه الليالي طويلاً، فتظلّون عرضةً للتعذيب عشر سنوات متتالية كاملة.

والآن انظرْ كيف تحققت هذه النبوءة بشكل محير! لقد نزلت هذه السورة في السنة الثالثة للبعثة، وأقام النبي ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، ولم تكن هناك معارضة علنية في السنوات الثلاث الأولى، أما بعدها فقد بدأ أهل مكة يعارضونه معارضة شديدة. لو طرحنا ثلاث سنوات من الثلاث عشرة الخالية من المعارضة بقيت عندنا عشر سنوات بالضبط، وهي التي ظل فيها المسلمون هدفًا لفظائع الكافرين، وهي التي أخبر عنها في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. فسُمّيت السنوات العشر هذه ليالي على سبيل الاستعارة لكثرة وشدة المصائب التي حصلت فيها. فكأن الله تعالى يقول فيها: يا محمد، كنا أخبرناك من قبل بقولنا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أن هؤلاء القوم سيبدءون معارضة منظمة، وها قد جاء أوانها. فتأتي الآن عليك وعلى أصحابك فترة من المصاعب. ستخيّم عليكم الآن ليال عشر حالكة مُخيفة ترتعد لها الأبدان وترتجف لها القلوب. إنها ليست ليلة واحدة، ولا اثنتان ولا ثلاث، بل هي عشر ليال على التوالي. سترى أنت وأمتك أياما عصيبة. ولكنا نبشرك، يا محمد، قبل حلول هذه الليالي بفجرٍ يطلع بعدها. لا شك أن هذه المعارضة ستكون شديدة، ولكن عاقبتها ستكون محمودة لكم في كل

حال، وسينتشر الإسلام وينتصر المسلمون وتنقشع سحب المحن بعد انقضاء عشر سنوات، ويطلع الفجر.

وفي السنة الرابعة بالضبط بدأ أهل مكة معارضة الإسلام والمسلمين بشكل منظّم وخيّمت على المسلمين هذه الليالي الحالكة. لقد قلتُ من قبل إن من الحقائق الثابتة أن هذه السورة نزلت في أواخر السنة الثالثة أو أوائل السنة الرابعة للبعثة النبوية، وبدأت المعارضة المنظمة في السنة الرابعة. هذا ما يؤكد تاريخ الإسلام بلا خلاف، كما يشهد عليه الكُتّاب الأوروبيون بناء على أحداث التاريخ رغم عدائهم للإسلام، فيقول السير وليام موير:

"It was not, however, till three or four years of his ministry had elapsed that any general opposition to Mahomet was organized."

"لقد ظهرت معارضة محمد (ﷺ) بشكل منظّم بعد دعواه بثلاث أو أربع سنوات". وكما بيّنا في تفسير قوله تعالى ﴿ناصبة﴾ أن المراد من المعارضة المنظمة تعيين مسؤولين وزعماء يقودون هذه الحملة الهادفة إلى محو الإسلام والتي تطلب من الجميع صغارا وكبارا الانضمام إليها. ومثل هذه المعارضة لم تبدأ إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات من البعثة في رأي موير.

ويضيف موير قائلا:

Even after he had begun publicly to summon his fallow citizen to the faith, and his followers had multiplied the people did not gainsay his doctrine.

أي: مع أنه (أي محمد ﷺ) كان قد بدأ بدعوة المواطنين إلى الإسلام علنًا، ورغم أن المؤمنين به أخذوا يزدادون، إلا أن القوم لم يروْا حاجة إلى تفنيد أفكاره.

كان من الممكن أن يظن البعض أن عددًا من الناس كانوا قد آمنوا بدعواه ﷺ مما هيّج الناس ضده حتمًا، خاصة وقد بدأ ﷺ يعظ الناس ويدعوهم إلى دينه، إلا أن ويليام موير يقول: إن هذه الفكرة ليست صحيحة، لأن الكفار رغم هذه الظروف لم يقولوا عندها إنهم سيسحقون المؤمنين أو يمحون أثر هذا الدين.

ويضيف موير قائلا:

They would only point at him slightingly as he passed and say there goeth the fellow from among the children of Abd al Muttalib, to speak unto the people about the heavens. (life of Mahomet p:68)

أي.. كان الكفار ينظرون إليه باحتقار وكراهية قائلين: هذا هو الشخص من أولاد عبد المطلب الذي يخبر الناس بأخبار السماء.

أما في أواخر السنة الثالثة أو بداية الرابعة فقد قرر الكافرون معارضة الإسلام بشكل منظم، حيث قال القسيس ريفراند ويري:

This would be as Noeldeke has it about the fourth year of his ministry at Mekkah. (A comprehensive Commentary on Quran; by Wherry; vol: IV Page 239)

أي أن المعارضة العلنية والمنظمة التي واجهها محمد (ﷺ) في مكة بدأت في آخر السنة الثالثة وبداية الرابعة في رأي نولدكه.

ثم انظروا كيف يعلن نولدكه عن زمن نزول سورة الفجر قائلا:

He (Noeldeke) however regards it as early Mekkan and in his chronological table place it immediately after chapter LXXX VIII. (A comprehensive Commentary on Quran; by Wherry; vol: IV Page 242)

أي.. أن نولدكه يعتبر هذه السورة من أوائل السور المكية، ويرى أنها نزلت بعد الغاشية مباشرة.

وقد سبق أن أخبرت أن سورة الغاشية نزلت في السنة الرابعة تقريبا حين كانت شدائد أهل مكة ستنصبّ على المسلمين.

إذن، فإن المؤرخين الأوروبيين والمسلمين متفقون على أن نزول هذه السورة في السنة الرابعة تقريبا. وهي نفس السنة التي بدأت فيها المعارضة من قبل كفار مكة بشكل منظم.. فصبّوا على المسلمين فظائعهم، حيث يعترف وليام موير أيضا أنه لم يتعرض المسلمون في السنوات الثلاث الأول لأي معارضة تُذكر، بل كان الكفار يمرّون بالمسلمين مستهزئين ساخرين، وعندما كانوا يرون الرسول ﷺ يدعو الناس للإسلام يقولون باحتقار: مجنون يخبر الناس بأخبار السماء. أما في بداية السنة الرابعة فبدءوا المعارضة العلنية المنظمة كما أُنبئ في قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. واتّحد الجميع صغارا وكبارا لمحو الإسلام وسحق المسلمين.

فالشهادات التاريخية متفقة على أن اضطهاد المسلمين بشكل منظم بدأ في السنة الرابعة أي قبل الهجرة بعشر سنوات (تاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٧-٢٨٩، والطبقات لابن سعد: ذكرُ دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام). وقد نزلت هذه السورة في السنة الرابعة نفسها.

فالحق أن قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ نبأٌ عن تلك السنوات العشر من الظلم والعدوان التي نسي فيها المكيّون حتى أدنى مبادئ الإنسانية والنبل. لقد أخبر الله المسلمين سلفًا عن هذا الاضطهاد المنظّم من قبل أهل مكة، وأنهم سيصبحون (عاملة ناصبة) في نهاية المطاف. إنهم سيصبّون عليكم أنواع الظلم والجور، باذلين كل ما في وسعهم للقضاء على الإسلام على الصعيد الفردي والجماعي. وستستمر هذه الفظائع عشر سنوات متتالية.. كل سنة منها بمثابة ليلة حالكة حيث لن تروا فيها بارقة أمل، ولكن بعد السنوات العشر الشداد والعجاف سيطلع الفجر وتزول المحن وتنتهي النوائب، وتبدأ فترة جديدة من رقي المسلمين.

وقد طلع هذا الفجر ببلوغ خبر بعثة النبي ﷺ إلى المدينة. كان يهود المدينة يقولون للمشركين: في كتبنا نبوءة عن بعثة نبي يقيم ملكوت الله في الأرض، وتدلّ الأمارات أن ظهوره قريب. ولما كان اليهود لا يعرفون المشيئة الإلهية فكانوا يظنون أن هذا النبي سيقيم الدولة اليهودية، وأنهم ينالون المُلك؛ فكانوا يهدّدون المشركين أننا سننتقم منكم عند بعثته (سيرة ابن هشام: إنذار يهود برسول الله ﷺ). وكان

اليهود في المدينة أقلَّ من المشركين عددًا ولكن أكثر منهم علمًا ومالا، فلما تناهى إلى أسماع المشركين خبر ظهور شخص في مكة يدّعي أن الله يوحي إليه قالوا فيما بينهم: ربما يكون هذا المدّعي صادقًا وهو نفس الموعود الذي يتحدث عنه اليهود، ولعلهم يسبقوننا بتصديقه فينالون المُلك.. فذهب بعضهم إلى مكة للحج، ولاقوا النبي ﷺ. فلما سمعوا كلامه أيقنوا بصدقه، وبايعوه على الإسلام. ثم جاء وفد آخر منهم، ثم وفد ثالث، حتى دخل عدد لا بأس به من أهل المدينة في الإسلام. ثم اقترحوا بعد تشاور أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يهاجر إليهم طالما أن أهل مكة يؤذونه، فأرسلوا وفدًا إلى النبي ﷺ، والتمسوا منه الهجرة إليهم، لأن قومهم كلهم يريدون الدخول في الإسلام. فقال النبي ﷺ سوف أهاجر إليكم إذا أذن الله. فقال بعضهم: فلعلك ترجع إلى بلدك بعد أن يكتب الله لك الغلبة. فقال ﷺ: كلا (سيرة ابن هشام: أمرُ العقبة الثانية). وأخيرا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن أذن الله له بذلك. هذه الهجرة هي الفجر المذكور في قوله تعالى ﴿والفجر﴾، والتي طلعت عندها شمس الإسلام، والتي بدأ بها التقويم الإسلامي حتى اليوم وسيظل إلى يوم القيامة. وقد أشار الله إلى هذه الهجرة نفسها في موضع آخر بقوله تعالى ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾(الإسراء: ٨١). هنا أيضًا نرى أن الله تعالى ذكَر أوّلاً البشرى أي دخوله ﷺ مكة فاتحا، ثم ذكر هجرته منها، مع أن الهجرة كانت قبل الفتح، مثلما ذكَر ﴿الفجر﴾ – وهو الهجرة التي هي نعمة وبشرى – قبل الحديث عن ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ التي هي إشارة إلى الاضطهاد الذي صُبَّ على المسلمين عشر سنوات، مع أن هذه الليالي العشر أسبق زمنًا من الفجر.

لقد ذكر الله تعالى هذه الهجرة في القرآن الكريم مرارا، لأنها ذات أهمية قصوى في تاريخ الإسلام كأهمية تلك السنوات العشر الشداد. يقول الله تعالى في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال: ٣٠-

٣١).. أي أيها المؤمنون اتقوا الله، لأنكم إن تتقوه يفتح لكم سبل النجاح على مصارعها، ويُزِل عنكم تقصيراتكم ويسترْ ضعفكم، والله ذو الفضل العظيم. ثم ضرب الله تعالى مثالاً على ما قال لكي لا يظنوا أن قوله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ مجرد وعد. فقال لرسوله: تَذكَّرْ أنت -واذكرْ لقومك أيضا - هذا الحادث، ليعرفوا أن إلههم وفيٌّ يملك كل قدرة وقوة. تَذكَّرْ حين تآمر الكفار لكي يسجنوك أو يقتلوك أو يطردوك من بيتك وبلدك.

ليس المراد من ذلك أنهم كانوا يريدون تنفيذ كل هذه المكائد الثلاث مرة واحدة، بل المعنى أنهم لما تشاوروا فيما بينهم قال بعضهم إن أمر محمد قد تجاوز الحدود، فقد آمن به أهل المدينة، ولو ظلّ يتقدّم على هذا النحو فسيشكل علينا خطرا كبيرا، فالأفضل أن نسجنه حتى لا يلقى الناس ولا ينشر دعوته. فقال الآخرون: لا فائدة من ذلك، لأننا لو سجنّاه ثار أقاربه وأتباعه غضبا وخرجوا لحربنا، مما يؤدي إلى فتنة بين القوم، فالأفضل أن نقتله مجتمعين لتنتهي القضية للأبد، أما أقاربه فلن يفكروا في حرب قبائلنا مجتمعة فيصيبهم اليأس منه ويصبرون على موته، إذ لن يعود إليهم ولو حاربوا قاتليه. فقال البعض الآخر: القتل ليس برأي، لأن هذا سيهيّج أقاربه بني هاشم وليس بمستبعد أن يحاربونا أخذًا لثأره، ولا يصبرون على موته كما يتصور البعض، فالأفضل أن نطرده من مكة. فقال الذين خالفوا طرده من بينهم: هذا ليس برأي، إننا نريد القضاء على دعوته، ولو ظلّ ينشرها بين الناس فإن العرب كلهم سيصبحون أعداء لكم. (سيرة ابن هشام: هجرة الرسول ﷺ). باختصار كانت هناك اقتراحات شتى، فاتفقوا بعد تداول الرأي أن يقتلوه ﷺ. فلأنهم قدّموا ثلاثة اقتراحات: الإثبات أو القتل أو الإخراج، فقد ذكرها الله هنا في القرآن الكريم.

ونرى هنا أيضًا أن القتل أخطرُ هذه المكائد، فمع ذلك ذكره الله تعالى بين السجن والطرد اللذين هما أقلّ خطورة، وهو نفس الترتيب الذي أشرتُ إليه لدى تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، حيث

ذُكر الشيء الأهمّ في الوسط والأمور الأخرى على يمينه وشماله. وكأنه كلام مثلث، جعل الله الأهم في الوسط، ثم ذكر على يمينه وشماله ما دونه أهمية.

باختصار، قرّر هؤلاء القوم أخيرًا قتله ﷺ، ولم يعتبروا سجنه أو طرده قرارًا أمثل، بل رأوا فيهما خطورة انتشار الفتنة في القوم، فقالوا الأفضل اغتياله بهجمة واحدة!

لا شك أنهم قرروا أخيرًا قتله ﷺ، ولكن القرآن ذكَر اقتراحاتهم الثلاثة، وسوف أبين حكمة أخرى وراء ذكرها.

وبعد ذكر اقتراحاتهم هذه قال الله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وكأن الله تعالى لما سمع أقوالهم قال لهم: لقد اتفقتم على قتله أخيرا، ولكنكم قد نسجتم خططًا ثلاثًا، ولذلك سأتخذ إزاءها تدابير ثلاثة. سوف أَدَعُكم لتجرّبوا هذه الخطط واحدة بعد أخرى، لأخيّبكم في كل مرة. سوف تكيدون لقتله فترجعون خائبين، وسوف تحاولون سجنه فتلقون الخزي والهوان في النهاية، وسوف تحاولون طرده من مكة فتفشلون في ذلك أيضًا فشلا ذريعا. لا شك أن النبي ﷺ ما كان ليُقتَل لأنه نبي تشريعي، وقد وعده الله تعالى بالعصمة، ومع ذلك لو فرضنا جدلاً أنهم نجحوا في قتله ﷺ، وخرجت بنو هاشم لأخذ ثأره، وقُتل صناديد الكافرين، لفرح عندئذ مَن اقترحوا سجنه ﷺ أو طرده من الوطن، وقالوا: ألم نقل لكم لا تقتلوه فرفضتم اقتراحنا وتضررتم؟

أما لو أخرجوا النبي ﷺ من مكة، فنجح في إدخال العرب جميعا في الإسلام، لفرح الذين عارضوا اقتراح طرده من بينهم، ولقالوا: ألم نقل لكم لا تُخرجوه من بينكم وإلا فسوف يؤثر في الناس ببيانه الساحر، فرفضتم اقتراحنا وتضررتم؟

ولو ألقوه في السجن، وحاول أقاربه وأتباعه ﷺ إطلاق سراحه وبدأت الحرب الأهلية فتمكنوا من إطلاق سراحه بطريق آخر، لفرح الذين خالفوا اقتراح السجن وقالوا: ألم نقل لكم لا تسجنوه، فرفضتم اقتراحنا وتضررتم؟

ولما كان كل واحد من أصحاب الآراء الثلاثة يمكن أن يفرح برجاحة رأيه فيما بعد، فلذلك ذكر الله تعالى اقتراحاتهم الثلاثة وقال: لقد منحناكم الفرصة لتنفيذ

الاقتراحات الثلاثة حتى لا يزعم أحدكم فيما بعد أن اقتراحه كان صائبا، وهكذا أثبتنا لكم عمليًا أنكم كنتم كاذبين فيما زعمتم، وفشلتم في تنفيذ ما اقترحتم.

أما فشلهم في قتله ﷺ، فبيانه أنهم قرروا أن يشترك في قتله ﷺ فتى من كل قبيلة من قبائل قريش، لكي يتفرق دمه على القبائل كلها، فلا يجرؤ بنو هاشم على محاربتها. فحاصر هؤلاء الفتيان بيته ﷺ وجلسوا على بابه، ولكن الله تعالى هيّأ من الأسباب ما جعل رسوله يخرج من بينهم ليلاً وهم ينظرون دون أن يدروا ذلك. لقد أمر النبي ﷺ قبل خروجه من البيت عليًّا أن يستلقي في فراشه – لقد ورد في بعض الروايات خطأً أن النبي ﷺ أمره بالنوم في سريره مع أن الأسرّة لم يكن لها رواج في تلك الأيام، بل ليس لها رواج عام في مكة حتى اليوم– فعندما مر النبي ﷺ من بينهم ليلا رآه بعض المحاصِرين، ولكنهم ظنوه شخصًا آخر جاء للقائه ﷺ ورجع الآن. إنهم لم يعرفوا النبي ﷺ لأنه خرج من بينهم غير خائف ولا وجل، فما كانوا يتصورون أن يجرؤ على الخروج من بينهم. ثم إنهم أطلّوا من نافذة ليطمئنوا أنه ﷺ لا يزال في البيت، فوجدوا فيه شخصًا نائما، فظنوا أنه رسول الله ﷺ، فظلّوا محاصرين بيته. ثم اقتحموا البيت لاحقًا. ولعلهم انتابتهم شبهة أن جسد الشخص المستلقي على الفراش ليس جسد محمد، فأزالوا الغطاء عن وجهه، أو لعل وجهه كان مكشوفا، فوجدوا أنه عليّ، فعلموا أنه ﷺ قد خرج بسلام من بينهم، فرجعوا خائبين خاسرين بمعجزة من الله تعالى. ولا شك أن الذين اقترحوا سجنه ﷺ قالوا للقوم ألم نقل لكم لا تقتلوه، بل ألقوه في السجن بناء على قرار يصدره مجلس شيوخنا، ولكنكم لم ترضوا برأينا، ورأيتم الآن ما حصل! يبدو أن أحدا من أقارب محمد لم يرضَ بخطة قتله فأبلغه بما تنوون، فانفلت من أيديكم.

ولا بد أن يكون هناك قوم آخرون قالوا عند نجاة النبي ﷺ من أيديهم: ألم نقل لكم أن تطردوه من الوطن ولا تحاولوا قتله أيضًا، ولكنكم رفضتم اقتراحنا، فرأيتم اليوم الخزي والفشل؛ ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.. أي أنهم كانوا يمكرون بك، ولكنا لم نكن غافلين عما

كانوا يفعلون؛ حيث قررنا إفشالهم في كل خطة. لقد حاولوا قتله وفشلوا، كما بطلت خططهم الأخرى أيضا، ليكون أمر الله غالبا.

هذا هو الفجر الذي طلع بعد ليال عشر حالكة. لقد أذن الله لرسوله بالهجرة، فخرج في رعاية الله من بين الكافرين المحاصرين بيته ﷺ بنية قتله، وهاجر إلى المدينة، فأصبحت مكيدتهم لقتله معجزة عظيمة له بدلاً من أن تضره. هذا كان أول خبر أفرح قلوب المسلمين الذين كان الألم يعتصر قلوبهم دائما بسبب فظائع الكافرين، فكانوا في بعض الأحيان يقولون لرسول الله ﷺ، هلا هاجرتَ إلى مكان آخر؟ فكان يجيبهم: لا أستطيع فعل شيء إلا بإذن الله (البخاري: كتاب المناقب). وبسبب شدائد هذه الليالي العشر كان كثير منهم هاجروا من مكة إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة. لا شك أنهم قد نعموا هناك بالراحة ونجوا من عذاب الكافرين، ولكن قلوبهم كانت تتألم دائما قلقًا على النبي ﷺ فكانوا يقولون في أنفسهم لا ندري كيف حال سيدنا، وماذا يفعل به العدو. فلما سمعوا خبر هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ذاقوا طعم النوم الهادئ لأول مرة، واطمأنت قلوبهم لأن سيدهم قد نجا من هجمات الأعداء. هذه الهجرة كانت بمثابة شعاع منبثق من الشمس الطالعة، ولذلك قد سمّاه القرآن الفجرَ الذي ينبئ عن انقلاب سماوي وشيك.

والآن نرى هل وقعت بعد فجر الليالي العشر واقعةٌ يمكن أن نسميها واقعة الشفع والوتر؟ عندما نتدبر القرآن نجد أنه يذكر واقعة الشفع والوتر أيضا وذلك في قول الله تعالى للمسلمين الضعفاء في المدينة ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٤٠).. أي إن لم تنصروا رسولنا فلن تضروا إلا أنفسكم، لأن رسولنا في حمايتنا، وقد أيدناه بنصرنا في كل موطن. ألم تعلموا حين اضطره الكفار للهجرة من مكة وفي رفقته شخص آخر، فاختفى في الغار، ولما رأى صاحبَه في قلق -ليس على نفسه، بل على نبيه ﷺ- طمأنَه رسولنا قائلا ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.. أي لا تقلق، فإننا لسنا اثنين، بل معنى آخر هو

وَتر. وقد شرح النبي ﷺ بنفسه هذا الوتر فقال: إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ (أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء أن الوتر ليس بحتم). فالشفع هنا هو محمد ﷺ وأبو بكر، والوتر هو الله ﷻ الذي كان معهما.

إذن، فكان الله تعالى قد أخبر سلفًا أنه سيأتي على الإسلام والمسلمين ليال عشر حالكة الظلام، وبعد انقضائها يطلع الفجر، ثم تلي هذا الفجر فورًا معجزة الشفع والوتر، وقد ظهرت هذه المعجزة في غار ثور، فظهر صدق قول الله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ظهورَ الشمس في كبد السماء.

لقد سبق أن بينتُ أن من المكائد التي اقترحها الكافرون أن يسجنوا النبي ﷺ، ولا بد أن مَن اقترحوا سجنه ﷺ فرحوا عند فشل مكيدة القتل، وقالوا لإخوانهم لو أنهم سجنوه لما فشلوا اليوم، ولذلك يقول الله تعالى لهم هنا: حسنًا، يمكنكم أن تمكُروا لسجنه أيضا، فترون كيف نجعلكم خائبين فيه. وبالفعل لما خرج النبي ﷺ وأبو بكر من مكة تحت جنح الظلام، وعلِم الكافرون بذلك، خرجوا متتبعين آثارهما، حتى وصلوا إلى مدخل غار ثور، وتوقفوا هناك، فقال لهم الدليل: هنا تنتهي آثار أقدامهما، فإما أن محمدا ﷺ مختف في هذا الغار، أو أنه صعد إلى السماء. كان العرب يثقون بالدليل كثيرا. في بلادنا أيضا أناس يقومون بهذه العمل ولكن معظمهم فاشلون، أما الدليل العربي فهو ماهر في فنّه بسبب الظروف الخاصة هناك. باختصار، قال لهم الدليل: يبدو أن محمدا في هذا الغار. فقالوا له: كيف يدخل الإنسان فيه؟ فقال: إذن، قد صعد هو إلى السماء. فضحكوا من قوله قائلين: فَقَدَ دليلنا صوابه وأخذ يهذي. هل يمكن لإنسان أن يختفي في هذا الغار؟ هناك شجرة على مدخل الغار، وقد نسجت العنكبوت على أغصانها بيتًا، ولو دخله إنسان لتمزّق بيت العنكبوت هذا. والواقع أنها كانت آية أخرى أراها الله عندها، فإن العنكبوت ينسج بيته في دقائق. لقد رأيت ذات مرة أن عنكبوتا نسج بيتا كبيرا له في دقيقتين أو ثلاث. إذن أمر الله تعالى العنكبوت أن ينسج بيته على الشجرة، ولم يخطر ببال هؤلاء الكافرين أن هذا البيت يمكن أن يُنسج في وقت قصير جدا. خلاصة القول، بينما كان الكافرون يتناقشون أصاب القلق أبا بكر رضي الله عنه

وهو على مسافة بضعة أمتار منهم في الغار، ولكن قلقه لم يكن على حياته، بل على حياة النبي ﷺ، فقد ورد أنه قال: يا رسول الله، لو قُتلتُ فيُقتَل شخص واحد، لا أكثر، أما إذا قُتلتَ فيُقتَل الإسلام. فلما رأى النبي ﷺ ما به من قلق قال: لا تحزن، إن الله معنا (الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٢٣٦).

وهنا أيضًا ترى أن الرسول ﷺ لم يقل لأبي بكر رضي الله عنه إن الله معي، ولم يكتف بقوله لا تحزن، بل ضمّ إلى نفسه أبا بكر وقال ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فالحق أن قوله تعالى ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ إشارةٌ إلى واقعة الشفع والوتر المذكورة في سورة الفجر، حيث بيّن الله تعالى أننا كنا أخبرناكم عن وقوع واقعة سيكون فيها شفعٌ معه وترٌ، وقد تحقق هذا حين كان رسولنا ﴿ثانيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ معنا﴾. ولولا هذا المعنى الذي أؤكد عليه لما كانت هناك حاجة لقوله تعالى ﴿ثانيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، إذ كان الموضوع واضحا بدون هذه الجملة أيضا؛ إذ قال الله تعالى: إلا تنصروه فقد نصرناه من قبل؛ ألم تروا كيف نصرناه في غار ثور؟ ولكن الله تعالى أضاف هنا قوله ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ليخبر العالَم أننا قد حققنا من خلال هذا الحادث تلك النبوءة التي أدلينا بها بقولنا ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ مؤكدين أن واقعة الشفع والوتر ستظهر بعد طلوع الفجر، أي بعد هجرة نبينا من مكة.

ثم يقول الله تعالى في سورة التوبة ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾.. أي عندما تحوّلا من اثنين إلى ثلاثة – أي أدرك أبو بكر أنهما ليسا اثنين بل معهما ثالث هو وتر– أنزل الله سكينته عليه.

أما قوله تعالى ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ فبيّن فيه أن الملك لا يكون وحيدا بل يكون معه جيش، ومحمد رسول الله ﷺ هو مَلِك العالم الروحاني، فأرسل الله له جنودا ما كان لأهل الدنيا أن يروها.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾.. أي كان الكافرون يقولون لو حاولنا سجن محمد لما رأينا الخزي والفشل، فها قد أفشلناهم في محاولة

السجن أيضا، حيث حاصروه ﷺ في غار ثور، فوصلوا إلى مدخله، ومع ذلك جعلنا كلمتهم السفلى وكلمة محمد ﷺ هي العليا، فرجعوا خائبين خاسرين.

كم هي عظيمة هذه المعجزة التي أظهرها الله تعالى! وما أروع هذه الآية التي أراها! لقد أراد الكافرون أن يسجنوا محمدا ﷺ لكبتِ صوته وجعلِ كلمته هي السفلى، ولكن الله تعالى رفع صوته ﷺ أكثر نتيجة هذا القيد والسجن، حيث أرى في واقعة قيده ﷺ في الغار معجزة أخرى ستظل -كمعجزة فشلهم في قتله ﷺ - دليلا ساطعا على صدق الإسلام وصدق دعواه ﷺ إلى يوم القيامة. فإن قيد النبي ﷺ في الغار لم يتسبب في ذلته وهوانه أبدًا، بل أصبح عاملاً آخر على إعلاء كلمته ﷺ على الدوام.

كان الكفار، حتى حادث غار ثور، قد فشلوا في خطتين من خططهم الثلاث، وبقي أن ينفذوا خطتهم الثالثة. ولما كان بوسع مَن اقترحوا منهم بطرد النبي ﷺ أن يقولوا: لم يعمل القوم باقتراحنا، وإلا لقُضي على الإسلام، فأراد الله أن يُخرجوا كل ما في جعبتهم، فذهب بنبيّه ﷺ إلى المدينة سالمًا معافًى، وهكذا تحققَ - في الظاهر- ما أرادته هذه الفئة الثالثة منهم من نفي محمد ﷺ من بينهم. لقد اطمأن المسلمون بعد قدومهم إلى المدينة على أمْن النبي ﷺ من الكافرين، ولكنهم لم ينتهوا عن المضايقة والعدوان، فحينًا حرّضوا عليه القبائل المجاورة، وحينًا أغاروا على المسلمين (أبو داود، باب في خبر النضير). وهذا يعني أنه كان لا يزال هناك ليل باق للمسلمين، والى ذلك أشار الله تعالى بقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾... أي لا شك أن بارقة أمل ظهرت بعد انقضاء الليالي العشر وتمّت الهجرة ووقعت واقعة الشفع والوتر، ولكن لا تزال أمامكم سَنةٌ أخرى من المحن، وبعد انقضائها سيطلع عليكم فجر آخر قد أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا

لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ وَإِذْ يُرِيكَمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(الأنفال:٤٢-٤٥).

فقد تحدث الله تعالى هنا بالتفصيل عن غزوة بدر الذي سماه يوم الفرقان، وأخبر أننا قد أنهينا مشاكل المسلمين بهذه الحرب، وبدّدنا عنهم الليل الأخير، وطلع عليهم الصبح المنير.

اللافت للنظر أن الله تعالى بشّر في قوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ بذهاب الليل، أي طلوع الفجر من جهة، ومن جهة أخرى سمّى غزوةَ بدر يوم الفرقان؛ ومن معاني الفرقان: الصبح والسَحَر (الأقرب). فأخيرًا حقق الله للمسلمين الفتح يوم بدر كما كان وعدهم به في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ في سورة الفجر، إذ أخبر فيه أنه بعد طلوع الفجر سيأتي عليكم ليلة هي الحادية عشرة من الليالي، وسوف ننهيها أيضا، وهكذا كسر الله شوكة الكفار للأبد.

فما كان بوسع أحد من الكافرين أن يقول بعد ذلك لو أن القوم عملوا برأيي لقضوا على الإسلام؛ ذلك لأن المكائد الثلاث التي لجأوا إليها لسحق الإسلام تسببت في ازدهاره ورقي المسلمين.

هذا الفجر الذي طلع على المسلمين كان فجرا رائعا. لقد طلع عليهم الفجر الأول بعد ليال عشر، حيث رأوا فيه شعاع النور، ولكنه كان بداية الشعاع فقط، إذ كان هناك ليل باقٍ، ولما ذهب هذا الليل وانتهت الليالي الإحدى عشرة أظهر الله يوم الفرقان الذي كسر شوكة العرب الكافرين كلّيّة. لا شك أن المسلمين تعرضوا للظلم بعدها أيضا، وخاضوا حروبا عديدة ضد الكافرين، ولكن غزوة بدر كسرت قوة الكافرين بلا شك، وظهرت عليهم قوة المسلمين.

وغزوة بدر التي قد سماها القرآن الكريم الفرقانَ قد وردت عنها نبوءة في التوراة أيضا كالآتي: "وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ تَبِيتِينَ، يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ. هَاتُوا مَاءً لِمُلاَقَاةِ الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ. وَافُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ، وَمِنْ أَمَامِ

الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ. فَإِنَّهُ هكَذَا قَالَ لِيَ السَّيِّدُ: «فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قِيدَارَ، وَبَقِيَّةُ عَدَدِ قِسِيِّ أَبْطَالِ بَنِي قِيدَارَ تَقِلُّ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ». (إِشَعْيَاءَ ٢١: ١٣-١٧)

لقد تنبأ النبي إشعياء هنا أنه بعد سنة واحدة تماما من الهجرة ستنشب حرب بين العرب يفني فيها مجدُ قيدار (قريش) كلية، والذين يتهمون محمدا ﷺ بالهروب سيولّون الدبرَ مع جنودهم، بحيث يتركون وراءهم في ساحة القتال جثث زعمائهم وقادتهم. وأخيرًا سيفقد وادي مكة مجده كلية بفقدان قادتها.

وهذا بالضبط ما أنبا به القرآن الكريم عن الليلة الحادية عشرة أنه بعد انقضاء سنة واحدة كاملة بعد الهجرة ستُكسر شوكة الكفار ويطلع صبح فتح المسلمين وانتصارهم. والمعروف أن غزوة بدر قد وقعت بعد سنة كاملة من الهجرة، وسقط فيها كبار صناديد الكافرين صرعى، وانتصر عليهم المسلمون انتصارًا ساحقًا. علمًا أن الرسول ﷺ خرج من مكة مهاجرًا في ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية. (سيرة ابن هشام: تاريخ الهجرة)، والقاعدة المعروفة أن بقية السنة تُحسَب في السنوات السابقة لا في السنة التالية.. وهكذا فالستة الأشهر الباقية من السنة الثالثة عشرة تُحسَب في الفترة المكية، وتبدأ السنة الجديدة برمضان، لأن رسالة النبي ﷺ بدأت بشهر رمضان، وبعد مجيئه إلى المدينة اكتملت عشر سنوات تمامًا على النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، وبدأت السنة الحادية عشرة من رمضان. وبعد انقضاء سنة أخرى وقعت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان (الكامل لابن أثير: ذكر غزوة بدر)، حيث قُتل صناديد الكافرين وانتهت فظائعهم. وكأن الليلة الحادية عشرة التي جاءت على المسلمين انتهت بعد سنة تماما، وطلع فجر فتحهم وانتصارهم بفضل الله وتأييده ونصرته.

هذا هو مفهوم هذه الآيات الذي انكشف عليّ بإلقاء من الله تعالى، والذي كل جزء منه ثابت على ضوء تاريخ الإسلام وآيات القرآن. فلا يمكن لأحد أن ينكر أنه قد أتت على المسلمين ليال عشر مظلمة، وبعد انقضائها انبلج لهم شعاع الفجر في صورة الهجرة، ثم وقعت واقعة الشفع والوتر، وأخيرا جاءت الليلة الحادية

عشرة التي انقضت بعد سنة كاملة بحسب وعد الله تعالى، فقُضي على مجد قيدار كليًّا. لا شك أن حروبًا وقعت بعد غزوة بدر أيضا، ولكن هذه الغزوة أزالت رعب الكفار، فلم يعودوا يعتبرون المسلمين لقمة سائغة، بل اعترفوا علنًا أن مقاومتهم صعبة.

إذن، فهذه الآيات نبوءة عن الأحداث الآتية في حياة الرسول ﷺ، وقد ذكر القرآن كل واحدة منها باسمها في مواضع أخرى، بل قد ذكر ثلاثة منها ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ معًا في مكان واحد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾.

لقد ذكرتُ من قبل أن الترتيب يتم بثلاث طرق: أوّلها يبدأ من الأسفل إلى الأعلى، وثانيها من الأعلى إلى الأسفل، وثالثها ترتيب مثلث يذكر الأعلى في الوسط ويذكر ما دونه على يمينه وشماله. وقد بينت أن في قوله تعالى ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ترتيبًا مُثَلَّثًا، حيث ذكر الله تعالى القتلَ – الذي هو أخطر المكائد– في الوسط، وذكر على يمينه وشماله الإثبات والإخراج اللذين هما أقلّ من القتل.

غير أن هناك ترتيبا آخر يجري مستقيما دونما خلل، وهو أن الله تعالى لم يذكر هنا الإثبات والقتل والإخراج بحسب ما اقترحه الكافرون، أعني ليس المراد أنهم اقترحوا القيْد أولاً ثم القتل ثم الإخراج، والدليل على ذلك أنهم اتفقوا على القتل أخيرا وليس على الإخراج، إنما جاء هذا الترتيب نظرًا إلى الواقع. لقد حاصروا النبي ﷺ ليلاً وحبسوه في بيته حسب ظنهم، فذكر الله الإثبات أولاً. ثم خرج النبي ﷺ من بيته مهاجرًا ومرّ بالمحاصرين، فكانت عندهم فرصة سانحة لقتله، إذ لم يحاصروه إلا لهذا الغرض، لذلك ذكر الله تعالى القتل بعد الإثبات ليبين أنهم رغم نية قتله فشلوا في قتله. وفي الأخير وقع حادث الإخراج، ورغم أن اضطهادهم دفع النبي ﷺ إلى الخروج من مكة إلا أن الله تعالى قد نسب الإخراج إلى نفسه في قوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾(الأنفال:٦)، ذلك لأنه لو لم يُخرجه الله ﷻ في ذلك الوقت لقُتل عندما داهموا بيته، فخرج ﷺ بأمر الله تعالى واختفى في

غار ثور، ولما وصل الكافرون إلى مدخل الغار باحثين عنه، نجا وخرج بنفسه. وهكذا أفشلهم الله تعالى في مكائدهم الثلاث: الإثبات والقتل والإخراج.

بيد أن هذا المعنى الثاني هو في المقام الثاني عندي، لأني أفضِّل المعنى الأول.

وقبل أن أبيّن الظهور الثاني لهذه النبوءة أودّ الإجابة على شبهة قد تنتاب البعض وهي: لماذا لم ينكشف هذا المعنى على الصحابة في زمن الرسول ﷺ لتقام الحجة على الكافرين عندها؟

والجواب: فيما يتعلق بإقامة الحجة فهو ممكن اليوم أيضا إذ نستطيع إقامتها على منكري الإسلام وإقناعهم بصدق الإسلام والقرآن بتقديم هذا المعنى. القرآن ليس لزمن واحد، بل هو لكل العصور، ولو قدّمنا اليوم هذه النبوءات أمام أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بهذه النبوءات وينكرون صدق الإسلام وصدق نبيه ﷺ، فلا بد أن يؤمنوا بصدق الإسلام لو كان عندهم عدل وأمانة.

أما السؤال: لماذا لم تنكشف هذه المعاني من قبل، فجوابه أن لكل عصر سلاحه، وليس ضروريا أن يكون السلاح الماضي اليوم ماضيًا في كل عصر. كان نجاح النبي ﷺ بحد ذاته آية عظيمة في عصره بحيث ما كان الصحابة بحاجة إلى دليل آخر، والتاريخ شاهد على ما أقول. فمثلاً أمر النبي ﷺ لدى فتح مكة بقتل هند زوجة أبي سفيان حيثما وُجدت، ولكنها حضرتْ مجلس النبي ﷺ متنقبةً بين النسوة الأخريات اللواتي جئن للبيعة (السيرة النبوية لأحمد بن زيني: غزوة الفتح الأعظم، والسيرة الحلبية: ذكرُ فتح مكة)، فلما قال لهن النبي ﷺ أثناء البيعة أن يعاهدنه على عدم الشرك، لم تتمالك هند نفسها إذ كانت حماسية الطبع، فقالت من فورها: يا رسول الله، أنشرك بالله تعالى بعد كل ذلك؟ كنتَ وحيدًا وحاربناك أجمعين، فلو كانت أصنامنا تملك نفعًا أو ضرًا لم تنتصر علينا ولم نر هذا الخزي والهوان. فكيف يمكن أن يشرك أحد بعد رؤية نجاحك؟ فما الحاجة الآن لأن تأخذ منا هذا الإقرار بعدم الشرك بالله؟

فترى أن آية انتصار النبي ﷺ كانت تبلغ من التأثير بحيث لم يكن الناس عندها يبحثون عن أدلة أخرى. ولما كان القرآن لكل عصر، فلا بد أن تنكشف معارفه

الجديدة في كل عصر. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن المفسرين المتأخرين قد استخرجوا من التوراة الأنباء التي تتحدث عن بعثة الرسول ﷺ وذكروها لدى تفسير قوله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾(الأحقاف:١١)، ولكن الصحابة لم يفطنوا إليها. (الفرقان في تفسير القرآن، وبيان القرآن). ذلك لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى الأنباء السابقة لمعرفة صدق الرسول ﷺ، وإنما كان يكفيهم دليلا على صدقه ﷺ أنه كان وحيدا عديم الحيلة وقام في ظروف غير مواتية، ومع ذلك انتصر. ولكن هذه الآيات التي كانت تشفي غليل الأولين لم تعُدْ كافية بمرور الأيام، فمسّت الحاجة إلى البحث عن آيات جديدة من القرآن الكريم، فبحث عنها المفسرون وارتكز اهتمامهم عليها أكثر. فلم يكن الصحابة بحاجة إلى مثل هذه الأدلة، وإن كانت مذكورة في القرآن الكريم، بينما كنا بحاجة للبحث عنها لسد حاجات أهل هذا العصر، فلما تدبرنا القرآن الكريم انكشفت علينا معارفه الجديدة. باختصار، كان عند الأولين آيات بيّنة جليّة على صدق النبي ﷺ وهي أن القوم أرادوا قتله فلم يقدروا، وأرادوا سحقه فلم يقدروا، وأرادوا الغلبة عليه فعجزوا؛ وبعد رؤية هذه الآيات العظيمة ما كان الأولون بحاجة إلى دليل آخر على صدقه ﷺ. كما كانت أحكام الإسلام حول العدل والإنصاف والمحبة وترك السيئات وغيرها واضحة ورائعة إزاء الشرائع اليهودية والمسيحية والمجوسية وغيرها بحيث أيقن الصحابة على وجه البصيرة أن لا مثيل لتعاليم الإسلام لدى الأديان الأخرى، وبالتالي ما كانوا ليتوجهوا إلى أدلة أخرى على صدق الإسلام أو يبحثوا في كتب الديانات الأخرى عن النبوءات الواردة في حقه. لا شك أن المفسرين ذكروا هذه النبوءات الواردة في كتب الأولين ولكنهم لم يذكروها إلا بعد أن وصل الإسلام إلى البلاد المسيحية، ذلك لأن الأدلة التي قُدِّمت للمشركين في البداية لم تكن كافية للمسيحيين، فأخذ المفسرون يبحثون عن النبوءات الواردة في الصحف السابقة، كما تدبروا في القرآن وأتوا بأدلة جديدة. وكل ما ورد في التفاسير فيما بعد من أدلة جديدة إنما كان نتيجة هذه الحاجات المستجدّة. لا شك أن هذه الأمور كلها كانت موجودة في معادنها، ولكن كل شيء منها ظل دفينًا

بحكمة ربانية، ثم انكشف حين احتاج الزمان إليه. والقاعدة أن التقدم العلمي يتمّ دائمًا خطوة بعد خطوة، وكل خطوة تكون إلى الأمام لا إلى الوراء. فمثلاً لو مشت الأمّ حاملةً ابنَها على كتفها عشرة أميال، ثم مشى الابن بعد ذلك، فلا بد أن يمشي إلى الأمام لا إلى الخلف، مع أنها أقوى منه وأن النُدَب والقروح ظهرت على أقدامها لطول المشي، لكن لا يمكن القول أنه قد سبق أمه. كذلك يأتي المرء بأدلة جديدة أحيانا رغم كونه أقلّ علمًا من الأولين، ذلك لأن العلم يزداد دائما، وأن معارف القرآن الجديدة تنكشف في كل زمن حسب الضرورة. فلا يصحّ الاعتراض على انكشاف هذه المعارف على المسيح الموعود عليه السلام وعدم انكشافها على الأولين.

وقد يقول البعض هنا: لماذا ذُكرت الليالي في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ نكرةً؟ هذا السؤال قد أثاره المفسرون القدامى أيضا، وأجابوا عليه بإجابة صحيحة تماما أنها ذُكرت نكرةً على سبيل التعظيم والتفخيم؛ لأن التنوين في اللغة العربية يفيد عدّة أغراض منها التنكيرُ حينًا والتعظيمُ حينًا آخر، ولا يعني التعظيم هنا كون الشيء جيدًا، بل يعني تفخيمه فقط بغضّ النظر عن جودته أو رداءته. فمثلا: لو كان الظلم كبيرا أو الإنعام كبيرا، فكلاهما يُذكر بالتنوين إذا أريد تفخيمهما (فتح البيان، والجامع لأحكام القرآن، والكشاف). ولم يفسّر المفسرون قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ بمعنى الليالي العشر من رمضان أو من ذي الحجة، إلا لكونها ذات عظمة وشأن، ولكن كما أثبتُّ من قبل أنه ليس تفسيرًا صحيحا، بل المراد من (ليال عشر) تلك السنوات العشر الشداد التي تعرض فيها المسلمون لاضطهاد شديد في مكة، كما ورد في كتب الحديث والتاريخ، حتى اضطر الصحابة للهجرة إلى الحبشة مرتين، وإلى المدينة مرة. فهناك هجرتان نظرًا إلى المناطق، وثلاث هجرات نظرًا إلى المرات. باختصار، قد جاءت (ليال عشر) نكرةً للإشارة إلى ما سيتعرض له المسلمون من فظائع مروِّعة بيد كفار مكة.

## نبوءة عن العصر الحاضر:

لقد ذكرتُ من قبل أن السور العديدة السابقة تتضمن نبوءات ذات صلة ببعثتي الرسول ﷺ الأولى والثانية، وأن سورة الفجر حلقة هامة من سلسلة تلك السور. فكما أن سورة الغاشية وغيرها من السور تتنبأ عن بعثتين للنبي ﷺ، كذلك تتحدث سورة الفجر عنهما. فهذه النبوءة التي ذكرها آنفًا بالتفصيل لا تتعلق بالبعثة الأولى فقط، بل بالبعثتين. ونعرف أحوال زمن البعثة النبوية الثانية مما ذكره الرسول ﷺ من أخبار مستقبلية، وكذلك نجد الإشارة إليها في قول الله تعالى ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنــزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾(الرعد:٢). فقد ذكر ابن إسحاق والبخاري في تاريخهما وروى ابن جرير عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال: "مرَّ أبو ياسر بن أخطب (أحد كبار أحبار اليهود) في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة.. فأتى أخاه حييَّ بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعتُ محمدا يتلو فيما أُنــزلَ عليه ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾. فقال: أنت سمعتَ؟ فقال: نعم. فمشى حُيَيّ في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألم يُذكر أنك تتلو فيما أُنــزلَ عليك ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟ قال: بلى. قال: أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم. فقال حُييّ بن أخطب وأقبلَ على مَن كان معه: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة؛ أفتدخلون في دينِ نبيٍّ مدّةُ مُلكه وأَجَلُ أُمّته إحدى وسبعون سنة؟ لا بأس لو بقينا تحت حكمه وصبرنا على الأذى لواحد وسبعين سنة، لأن غلبته ستنتهي بعدها. فقال النبي ﷺ: عندي غيره. قال: وما ذاك؟ قال: المص. فقال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومئة سنة؛ ولا بأس أيضًا. فقال النبي ﷺ: عندي غيره. قال: وما ذاك؟ قال: الر. قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مئتان، فهذه إحدى وثلاثون سنة ومئتان؛ وليست بمدة طويلة. فقال النبي ﷺ: عندي غيره أيضا وهو: المر. قال:

فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مئتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومئتان؛ ثم قال: لقد لَبِسَ علينا أمرُك يا محمد. ثم قاموا وذهبوا. (فتح البيان)

لقد تبين من هذه الرواية أن الرسول ﷺ لم يفنّد رأي هذا الحبر اليهودي بل صدّقه، مما يؤكد أن المقطعات القرآنية تتضمن فيما تتضمن نبوءة عن أحداث تقع في الإسلام، سواء كانت هذه الأحداث صغيرة أو خطيرة. وعندما ننظر في سورة الرعد التي تشتمل على أخبار خطيرة جدًّا نجدها تبدأ بقول الله تعالى ﴿المر﴾، مما يعني أن زمن غلبة الإسلام سيستمر إلى ٢٧١ عاما، وفي تلك السنة ستقع واقعة هامة تؤدي إلى اضمحلال الإسلام.. ذلك لأنه في حساب الجُمّل (المر)= ٢٧١ حيث أ=١، ل=٣٠، م=٤٠، ر=٢٠٠، والمجموع=٢٧١.

بعد قراءة هذا الحديث والتدبر في سورة الرعد والإمعان فيها بدأتُ البحث عما إذا كان هناك حادث هام ذو صلة بضعف الإسلام قد وقع في عام ٢٧١ هـ أو قريبا منها – لقد قلت: "أو قريبًا منها" لأن بعض الأحداث تقع في سنة معينة، ولكن أساسها يوضع قبلها بسنة أو سنتين– فبناء على ذلك بدأتُ أُجيلُ النظر في تاريخ الإسلام لأرى ما إذا كانت واقعة هامة يمكن اعتبارها أساسًا لضعف الإسلام قد وقعت ما بين ٢٧٠ هـ إلى ٢٨٠. وأذهلني هذا البحث، إذ وجدتُ أنه في عام ٢٧١ بالتحديد –وليس في عام ٢٧٠ أو ٢٧٢ أو ٢٧٣ أو ٢٧٤– عقَد مَلِكُ إسبانيا المسلم اتفاقيةً مع البابا لينصره على تدمير الدولة العباسية في بغداد. وهذا يعني أن ملِكًا مسلمًا عقد معاهدة مع مَلِكٍ مسيحي لمحاربة ملِكٍ مسلم آخر وتدمير مُلكه. ثم حين طالعت تاريخ الدولة العباسية الإسلامية في بغداد، وجدتُ أنها أيضًا عقدت مع قيصر القسطنطينية معاهدة لتدمير حكومة الأندلس الإسلامية في عام ٢٧٢ أو ٢٧٣ هـ.

وهاتان الواقعتان الخطيرتان قد أدتا إلى إضعاف الإسلام للأبد فلم يعد رقيه على ما كان عليه من قبل. أما قبل ذلك فكان المسلمون متّحدين ضد عدوهم؛ فمثلاً حين كان عليّ ﷺ ومعاوية يتحاربان أراد قيصر القسطنطينية الهجوم على

المسلمين، وكانت دولة معاوية تقع بينه وبين دولة عليّ، فلما علِم معاوية بنوايا قيصر بعث إليه قائلا: لا تغترّ بما بيني وبين عليّ من حرب، فلو جئتَ بجيشك لمحاربة عليّ فسأكون أول قائد يخرج لحربك مِن قِبل عليّ (البداية والنهاية: ج ٨ ص١٢٥-١٢٦). وهذا يعني أن معاوية لن يحارب قيصر فقط، بل سيتصالح مع عليّ ويحارب قيصر تحت إمرته. فلما تلقى قيصر رسالته خاف وانثنى عن عزمه على حرب المسلمين. فترى أن المسلمين كانوا في البداية متحدين ضد عدوهم رغم حربهم فيما بينهم، ولكن في عام ٢٧١ هـ عقدت دولة إسلامية اتفاقية مع البابا، بينما عقدت دولة إسلامية أخرى اتفاقية مع قيصر القسطنطينية للقضاء على الأولى بمساندة المسيحيين. إنا لله وإنا إليه راجعون. إذ وضع الأساس لضعف الإسلام في عام ٢٧١ هـ. عندها فهمتُ أن الرأي الذي قدّمه اليهود عن المقطعات والذي لم يرفضه الرسول ﷺ هو حقيقة ثابتة.

وقال الله تعالى في مكان آخر ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٦).. أي أنّ من سُنَّة الله المستمرة أنه ينـــزل للناس الهدى من السماء، ويقيم جماعة من المؤمنين.. وسيفعل الآن أيضا ويقيم الإسلام على يد رسوله ﷺ في الدنيا، ولكن هذا الدين سيبدأ في الصعود إلى السماء في يوم مقداره ألف سنة مما تعدّون.

لقد أنبأ الله تعالى هنا عن فترة ضعف الإسلام التي ستمتد إلى ألف سنة، حيث يرتفع الإيمان والإسلام إلى السماء، ويبتعد الناس عن الدين. ونظرًا إلى المعنى الذي بينتُه من قبل لقوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فيما يتعلق بعصر الرسول ﷺ، كان الليل يساوي سنة، ولكن نظرًا إلى هذا المعنى الثاني المتعلق بضعف الإسلام، فالليل يساوي قرنا، حيث بين الله تعالى أنه سيأتي على الإسلام لَيَالٍ عَشْرٍ مظلمة، وكل ليلة منها ستساوي قرنا من الزمان، أي أن هذه الفترة ستمتد إلى ألف سنة.

فيا لها من مشابهة لطيفة! فكما جاءت في زمن النبي ﷺ عشر سنوات من الظلم والجور بعد انقضاء ثلاث سنوات من البعثة، كذلك قد أخبر الله هنا أن الإسلام

سيضعف بعد القرون الثلاثة الأولى وأن فترة ضعفه هذه ستمتد لعشرة قرون.. أي ألف سنة. وقد بدأت هذه الفترة من السنة ٢٧١ هـ كما بينت آنفًا، فلو أضفنا إليها ألف سنة التي هي فترة ضعف الإسلام صارت عندنا ١٢٧١ عاما، أي قرابة ١٣ قرنا. فثبت أن القرآن الكريم يتحدث عن ١٣ قرنا للإسلام؛ كانت حوالي ثلاثة قرون منها (أو ٢٧١ سنة) فترة رقيه، وعشرة قرون منها تشبه الليل، وكما طلع الفجر بعد ليال عشر في بداية الإسلام، كذلك سيطلع الفجر بعد (ليال عشر مظلمة).. كل واحدة منها تساوي قرنًا من الزمان.

وقد أُشير إلى الموضوع نفسه في قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾(سبأ:٢٩-٣١)

قبل شرح هذه الآية يجب أن نفهم أن الله تعالى أعلن في الآية ٤١ من سورة الأحزاب أن محمدًا ﷺ خاتمُ النبيين، أي أنه من الآن فصاعدا لن ينال الناس قرب الله وغيره من البركات والفيوض الإلهية مباشرةً، بل بواسطته واتّباعه ﷺ. وسورة سبأ أيضًا تتحدث عن هذا الموضوع نفسه، حيث أكد الله تعالى أنه سيقيم في الدنيا نظاما جديدا أبديا على يد رسوله ﷺ. وهنا ينشأ سؤال: هل يعني هذا أن محمدا ﷺ منع الناس من الوصول إلى الدرجات العلا في هذا النظام الروحاني الجديد؟ فأجاب الله على ذلك في سورة سبأ وبين أن محمدا ﷺ لم يمنع الناس من الوصول إلى المقامات الروحانية العالية، والدليل على ذلك أنه سيأتي على الدوام من بين أتباعه ﷺ أنبياء خادمون له، فقال الله تعالى لنبيه: يا محمد، ما كانت نبوّتك لتنتهي، بل هي مستمرة إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.. أي لقد أرسلناك بشيرا ونذيرًا للناس جميعا سواء كانوا عربا من الجزيرة العربية أو سوريين أو فلسطينيين أو من أي شعب آخر ومن أي قرن وزمان. لا شك أن الإيمان بكل نبي صادق ضروريٌ؛ إذ لا بد لأتباع النبي ﷺ من الإيمان بموسى عليه السلام مع أنه لم يكن مبعوثا إلى العالم كله، أما محمد ﷺ فيقول الله له لم نبعثك ليؤمن بك الناس فحسب، بل لتكون بشيرا ونذيرا لأهل كل عصر إلى

يوم القيامة. لا شك أن موسى عليه السلام كان نبيًا صادقًا، ولكنه لا يقوم اليوم بأي تبشير ولا إنذار، وليست أحكامه جارية اليوم بحيث إذا كفر بها الناس تعرضوا للعذاب وإذا عملوا بها تمتعوا بفضل الله ونِعَمه؛ وإن الفضل أو العذاب لا ينـــزل على الإنسان إلا نتيجة إيمانه أو كُفره بنبي نبوته جاريةٌ وسارية، لذلك يقول الله تعالى لنبيه ﷺ لقد بعثناك لجميع الناس في كل العصور إلى يوم القيامة فلا بد لهم من الإيمان بنبوتك، وليس هذا فحسب بل ستظل بشيرا ونذيرا لهم أيضا، فالذين يؤمنون بك سنشملهم بفضلنا، والذين يكفرون بك سننـــزل عليهم العذاب من عندنا.

ثم قال الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.. وليس المراد من قول الله هذا أن الناس لا يؤمنون بك، فهذا الأمر مفهوم ومعروف لا فائدة في إعادته، إنما المراد منه أن ما قلناه لك الآن لم يعرفه الناس من قبل، لأنهم كلهم كانوا يعرفون ويؤمنون بأنبياء مختصين بشعبهم وبعصرهم فقط، إلا المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بمُلك روحاني أبدي وللعالم كله، أما غيرهم فكلهم لم يؤمنوا بهذه العقيدة، لأن الأنبياء ظلوا يُبعثون وتُنسَخ شرائعهم على مر العصور؛ فلذلك يقول الله تعالى إن الدعوى التي أعلناها عن منصبك لا يعلمها أكثر الناس، إذ يعتقدون أنه كلما جاء نبي نسَخ نبوة النبي السابق، وبالفعل لم يحدث في الدنيا قبل النبي ﷺ قط أن بُعث نبي للعالم كله وإلى العصور كلها. إن الهندوس يرون أن كتابهم الفيدا شريعة أبدية، ولكنهم لا يعتبرونها للعالم كله، إذ يؤمنون أنه لو سمع أحد الشُودر✪ كلمة من الفيدا فيجب أن يوضع في أذنه رصاص مغليّ. أما الزرادشتيون فهم صامتون في

---

✪ تقسم الديانة الهندوسية أتباعَها على أربع طبقات: ١- البراهمة: وهم الذين خلَقهم الإله "براهما" منَ فمه حسب زعمهم: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر (أو "كَهْتري"): وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدّمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الوَيش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشُودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعَمَلُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة كتنظيف الشوارع والمراحيض. (المترجم)

هذه القضية، ولكن الواضح تماما أن دينهم ليس للعالم كله. أما اليهود فبدأوا يقولون الآن إن شريعتهم أبدية. والحق أن هذه الفكرة قد تبلورت في أذهانهم مؤخرا، أما قبل ذلك فكانوا يعتقدون بنـــزول شريعة أخرى كما هو ظاهر من التثنية ١٨: ٨، والتثنية ٣٣: ٢. ثم جاء عيسى عليه السلام ولم يكن للعالم كله، ولكنه بُعث في زمن قريب من عصر بعثة نبي كان من المقدر أن يكون للعالم كله، وكانت الظروف تتغير بسرعة، ولذلك ظنّ المسيحيون خطأً أن المسيح مبعوث للعالم كله، إلا أنهم ليسوا أكثر الناس، بينما يقول الله تعالى هنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.. أي أن الغالبية العظمى من الناس لا يحملون هذه العقيدة أصلا، بل يرون من المحال أن تكون هناك شريعة للعالم كله ثم تكون أبدية. هذان الفَرْقان لا يزالان قائمين حتى اليوم، وأتباع أكثر الأديان لا يؤمنون بذلك، إلا المسيحيون.

ثم يقول الله تعالى بعد هذه الآية من سورة سبأ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.. أي يقول الناس إذا كان محمد بشيرا ونذيرا لكل زمان فهذا يعني أن الفساد سيظل ينتشر في الدنيا وسيظهر محمد بشيرا ونذيرا للعالم لإزالة هذا الفساد، وسؤالنا: متى يأتي هذا الزمان؟ ومتى يظهر محمد ﷺ بشيرا ونذيرا للعالم مرة أخرى؟

من الواضح أن كون الرسول ﷺ بشيرا ونذيرا إلى يوم القيامة لا يعني أنه سيعود إلى الدنيا بجسده المادي ليبشر الناس وينذرهم، بل المراد أن أظلاله ﷺ سيأتون إلى الدنيا، فكلما وقع فساد في الأرض قام ظل من أظلاله بشيرا ونذيرا.. وهذا يُعتبر بعثةً ثانية للنبي ﷺ في العالم. وهذا ما أجاب الله به على سؤالهم في الآية التي تلتها فقال: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.. أي سبق أن حدّدنا ميعاد يوم لهذا الوقت – وذلك في سورة السجدة– بمعنى أن محمدا ﷺ سيُبعث بشيرًا ونذيرا للعالم ثانية بعد انقضاء فترة الفساد في الإسلام الممتدة ألف سنة. فقوله تعالى ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.. هو في الواقع إشارة إلى تلك الليالي العشر المظلمة التي أتت على المسلمين بعد فترة رقي الإسلام الممتدة حوالي ثلاثة قرون، وقد ظلت مخيمة عليهم لألف سنة هي

المذكورة في سورة السجدة في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

إذن، تحدث القرآن الكريم عن ثلاثة عشر قرنا، وبيّن أن عشرة قرون منها تشبه عشر ليال مظلمة تتوالى على المسلمين، وكل ليلة منها تساوي ١٠٠ عام.

كذلك قال الله تعالى في موضع آخر ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۞ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق:١٧-٢٠).. أي ليس الأمر كما تقولون، فإني أقدم كشهادة الشفقَ، ثم الليلَ وما جمع في نفسه، ثم القمرَ حين يدخل في ليلته الثالثة عشرة. فقوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يعني أن الأمر ليس كما تظنون، فإني أقدّم شهادة الشفق.. أي حين تغيب الشمس وتبقى حُمرتها. فكأنه تعالى يقول للكافرين إن جهودهم للقضاء على الإسلام ستذهب سدى، لأن الإسلام سينتصر حتمًا ولن يهزموه مهما فعلوا. غير أن هذا لا يعني أن الإسلام سيظل قويا على الدوام، بل كما أن الشمس تغيب بعد فترة معينة وتظل حمرة في الأفق، كذلك سيأتي على الإسلام زمان تظهر فيه آثار الاضمحلال مع بقاء الشفق، بمعنى أنه زمان لا يكون فيه ضوؤه ضوء النهار، كما لن يكون الظلام شديدًا كظلمة الليل، بل يكون الأمر خليطا، حيث تكون فيه الغلبة للمسلمين ولكن يظهر فيهم الضعف والاضمحلال أيضا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.. أي ثم أقدّم لكم كشهادةٍ الليلَ وكل ما يحتويه من شرّ... أي ليلة مخيفة تجتمع فيها أنواع الشدائد والظلمات.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي ثم أقدّم كشهادةٍ القمرَ حين يدخل ليلته الثالثة عشرة. واتّساق القمر يكشف بجلاء أن الليل هنا ليس ليلا ماديا، بل هو ليل مجازي، إذ المعروف أن الليلة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة في الشهر القمري لا تكون حالكة الظلام، بل الليالي الحالكة تأتي في آخر الشهر. فلو كان المراد هنا الليل المادّي لم يقل الله تعالى بعده ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. فهذه القرينة دليل أن الحديث هنا ليس عن ليل مادي. وقد سبق أن بينتُ في تفسير سورة الانشقاق أن اتساق القمر يعني استواءه في الليلة الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة من الشهر

القمري. فكأن الله تعالى قد أخبر هنا أن شمس الإسلام تغيب كما يغيب النهار، ولكن اضمحلال الإسلام هذا لن يحدث مرة واحدة، بل سيكون تدريجيا إلى أن تغيب شمسه عن أعين الناس، ويبقى شفقها في الأفق، ثم يغيب الشفق أيضا ليخيم ليل مظلم على المسلمين. ثم يطلع القمر في الليلة الثالثة عشرة حتى الليلة السادسة عشرة لِيُنهي مصائب الإسلام كلها، وسوف يستمر هذا الرقي ليكتمل حتى القرن السادس عشر.

لقد اختار الله تعالى لبيان هذه الحقيقة كلمة رائعة: (اتّسق)، وقد ورد في المعاجم -كما ذكرنا بالتفصيل لدى شرح الكلمات- أن اتساق القمر هو استواؤه في الليلة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة من الشهر. ولو اعتبرنا الليلة الثالثة عشرة والرابعة عشرة بداية طلوع هذا القمر، فإن الليلة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ستُعتبران ذروة إنارة القمر.

باختصار، لقد بين الله تعالى هنا أن الإسلام سيؤول إلى الضعف، ولكن سيطلع القمر في القرن الثالث عشر لينتهي زمن الآلام. وقد أكد الله هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾.. أي لا بد أن تمرّوا بهذه المراحل كلها درجة درجة، فستأتي على الإسلام فترات الظلام ثم فترات النور، وستأتي أيام القوة وأيام الاضمحلال. ستُشبِهون الشفق في البداية ثم يخيم عليكم الليل المخيف بكل ظلماته. ثم يطلع عليكم القمر الذي سيبدد هذه الظلمات كلها لتنتهي مصائب الإسلام.

هذا كله يكشف أن الليالي هنا ليست مادية كما قلتُ، بل هي ليالٍ مجازية، حيث رسمتْ هذه الآيات انحطاط المسلمين ثم ازدهارهم ثانية.

وكذلك قال الله تعالى في سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾(البروج:٢-٤).. أي نقدّم كشهادة السماءِ ذات البروج. وحيث إن البروج عند علماء الفَلك هي اثنا عشر برجًا لاثني عشر نجمًا، وعليه فالآية تعني أننا نقدّم كشهادة السماء ذات البروج الاثني عشر، ثم نقدّم كشهادة اليوم الموعود.. أي القرن الثالث عشر، إذ كان من المقدر أن يُبعث في هذا القرن لإحياء الإسلام موعود رباني وُصف في الآية التالية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾،

بمعنى أنه سيأتي شاهدا على صدق إنسان آخر هو مشهود.. والمراد أن الله تعالى سيبعث عندها المسيح الموعود كشاهد على صدق الرسول ﷺ والقرآن المجيد.. فيبدَّل ضعف الإسلام إلى رقيّه.

إذًا، فهذه الآية أيضا تدل على ظهور مبعوث من عند الله في القرن الثالث عشر.

كذلك ورد في الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..... ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ (البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا). والمراد من قوله ﷺ: "وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ" الثلاثة أنهم يصابون بالسمنة من كثرة الأكل، ولن يرغبوا في الدين والتضحية في سبيله.

يتضح بالجمع بين كل هذه الآيات والنبوءات أن القرون الثلاثة الأولى هي فترة ازدهار الإسلام، ثم تأتي عليه عشرة قرون طويلة من الضعف والاضمحلال. وقد بيّنتُ من قبل أنه ليس بضروري أن تكون هذه الفترة متكاملة ١٠٠% إلا أن تكون هناك قرينة، بل يُعتبر معظم السنة سنة كاملة، ومعظم اليوم يوما كاملا، ومعظم القرن قرنا كاملا. فلا تناقُضَ أصلاً بين ما ورد في الحديث أن فترة رقي الإسلام ثلاثة قرون يظهر بعدها الفتن وبين ما تبينَ من مقطعة سورة الرعد: ﴿الر﴾ من أن الفساد يظهر بعد٢٧١ سنة، بل الواقع أن هذه الفترة قد حددت تحديدا في مكان، بينما استُخدمت في مكان آخر كلمات تقريبية بحسب العرف.

باختصار، قال الله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. أي نُقسِم بالفجر والليالي العشر التي تسبقه. والمراد من الليالي العشر هو فترة الألف سنة من الضعف الذي أتى على الإسلام بعد ثلاثة قرون من ازدهاره، والذي قد اشتد كل شدة حتى جمعت هذه الليالي كل الظلمات. وكما أن الليل في نبوءة الليالي العشر كان يماثل سنة واحدة فيما يتعلق بصدر الإسلام، فإن الليل كان يماثل قرنا فيما يتعلق بالزمن الأخير، فأخبر الله تعالى أنه بعد هذه الليالي المظلمة سيطلع الفجر، وستنقشع غيوم الظلمة عن سماء الإسلام؛ ومن أجل ذلك كان من أسماء المسيح الموعود عليه السلام الطارقُ، حيث نجد أول وحي تلقاه عليه السلام هو: "والسماء والطارق" (التذكرة ص

١٩). لقد تلقاه عند وفاة أبيه، وفَهِمَ منه دُنوّ أجل أبيه، إذ توفي في نفس اليوم ليلاً. ولكن من معاني الطارق أيضا كوكب الصبح، فكأن الله طمأنه عليه السلام بنفس هذا الإلهام وقال لا داعي للقلق فأنت الطارق.. حيث تكشف نور أبيك محمد ﷺ، فلماذا تحزن على وفاة أبيك المادي؟

واللافت للنظر أيضًا أننا إذا جمعنا حساب ﴿المر﴾ ألف سنة التي هي زمن الفَيج الأَعْوج (أي الفساد)، ثم حوّلنا هذه السنوات الهجرية إلى ميلادية بإضافة ٦٢١ سنة –وهي فترة ما بين بداية التقويم الميلادي حتى هجرة الرسول ﷺ– كانت عندنا نفس السنة الميلادية التي طلع فيها هذا الفجر، أعني السنة التي قدّم فيها المسيح الموعود عليه السلام دعواه أمام العالم. فـمقطّعة ﴿المر﴾ تساوي٢٧١، ونضيف إليها ألف سنة هي زمن الفيج الأعوج، فتصبح ١٢٧١، ثم نضيف إليه ٦٢١ فيصبح المجموع ١٨٩٢، والآن نطرح منه سنتين أو ثلاثًا، لأن مقطّعة ﴿المر﴾ قد وردت في فاتحة سورة الرعد المكية التي نـزلت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث، فلو طرحنا سنتين من ١٨٩٢ صارت عندنا ١٨٩٠، وهي نفس السنة التي أعلن فيها المسيح الموعود عليه السلام دعواه. ولو طرحنا منها ٣ سنوات، صارت عندنا ١٨٨٩ وهي السنة التي أخذ فيها المسيح الموعود عليه السلام البيعة من الناس.

أما إذا قمنا بالحساب طبقًا للتقويم الهجري، فنجمع الثلاثة القرون الأولى مع ليال عشر (عشرة قرون)، فتصبح ١٣٠٠، وقد أعلن المسيح الموعود عليه السلام دعواه قريبًا من ١٣٠٨هـ، وعدد ٧ أو ٨ ضئيل جدا في فترة ١٣ قرنا، بحيث لا قيمة له.

ثم لو نظرنا من زاوية أخرى وجدنا أن هذا العدد يمثّل نبوءة عن "براهين أحمدية". لقد قام المسيح الموعود عليه السلام بتأليف كتابه "براهين أحمدية" في عام ١٣٠٠ هـ، وطبعه في عام ١٣٠٢هـ، وهي نفس السنة التي كان من المقدر فيها طلوع الفجر بحسب هذه النبوءة القرآنية.

إذن، فهذه النبوءة قد تحققت شمسيًا وقمريًا، وطلع الطارق في أفق السماء لتبديد ظلمات الليل. فما أعظمَها من نبوءة! فأولاً حدّد الله تعالى تواريخ طلوع هذا الفجر في القرآن الكريم والحديث، ثم بعد مضيّ مئات السنوات أقام لهداية

الناس ذلكم الشخص الذي كان مصداقا لهذه الأنباء تماما في التواريخ التي حددها لظهوره. إنها آية ربانية عظيمة إذا تدبّرَها الإنسان امتلأ قلبه يقينا بوجود الله وقدرته ﷻ، و لم يملك غير المتعصب إلا الإقرار بأنّ الإسلام دينُ الله الحق.

والآن نتوجه إلى الجزء الثالث من هذه النبوءة أعني قول الله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾. هذه الآية يمكن تفسيرها بمفهومين: أولهما أننا نقدّم كشهادةٍ واقعةَ الشفع والوتر –علمًا أن الواو هنا للعطف.. والمعنى أننا نقسم بالشفع ونقسم بالوتر، بينما الواو في قوله تعالى ﴿والفجر﴾ للقَسم، إذ ليس قبله أي كلام حتى نعتبرها للعطف– فكما أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه حين كان معه في غار ثور: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، كذلك أخبر الله تعالى هنا أن وقت اجتماع الشاهد والمشهود، أي وقت ظهور الرسول ﷺ ثانية وظهور خادمه وظِلّه معه، يكون عصيبا على الإسلام حيث يُحصَر رسول الله ﷺ مع تلميذه، وعندها يُري الله الذي هو وتر للعالم أنه معهما. وهناك إلهام للمسيح الموعود عليه السلام:

"رسول اللہ ﷺ پناہ گزیں ہوئے قلعۂ ھند میں"

(التذكرة ص ٤٠٤)

أي لجأ رسول الله ﷺ إلى قلعة الهند. بمعنى كما أن الرسول ﷺ لجأ بصحبة أبي بكر إلى غار ثور فرارًا من هجوم الكافرين الأوائل، كذلك ستلجأ روحانيته ﷺ في الزمن الأخير إلى قلعة الهند فرارًا من الكفر. فنرى أن هذا الإلهام الرباني يصرح أن غار ثور الثاني سيكون في الهند، وأن رسول الله ﷺ سيلجأ إلى غار ثور الثاني مرة أخرى ويكون معه صاحبه مرة أخرى فيقول ﷺ لصاحبه مرة أخرى: لا تحزن إن الله معنا.. أي لا تحزن لأن هذا القيد نفسه سيصبح سبب النجاح بفضل الله ونصرته. إذًا، قد بين الله تعالى بقوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أنه كما لاذ النبي ﷺ مع أبي بكر بغار ثور في المرة الأولى، كذلك سيلوذ النبي ﷺ مع المسيح الموعود في الزمن الأخير للإسلام، ولكن لن يلوذ هذه المرة بغار ثور، بل بقلعة الهند، فيَنزل الله ﷻ مع جيش من ملائكته ليكون معهما، كما نزل في غار ثور من قبل.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو أنْ لا نعتبر الواو في (والوتر) عطفًا على الفجر، بل عطفا على الشفع، وعندها لا يكون المعنى أننا نُقسِم بالشفع ونقسم بالوتر، بل المعنى نُقسِم بالشفع والوتر الذي معه. وكأن الله تعالى قد أقسم بالشفع والوتر معًا وليس بالشفع على حدة وبالوتر على حدة، والمراد أننا نقدم كشهادة شخصيةً هي شفع من جهة ووتر من جهة.. أي أن الفجر الذي يطلع بعد ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ سيطلع بواسطة شخص لا يمكن فصله عن الرسول ﷺ، وإن كان شخصًا آخرَ في الظاهر. فمع أنه سيكون شخصا آخر في الظاهر، ويكوّن شفعًا مع الرسول ﷺ، إلا أنه لن يكون هناك نبيان ولا إمامان، بل إن هذا الموعود سيتفانى في الرسول ﷺ، بحيث سيبقى الرسول ﷺ هو الرسول الحقيقي رغم بعثة هذا الموعود. فكأن المعنى ما بيّنه المسيح الموعود عليه السلام في شطر بيت له بالأردية:

"وه ہے میں چیز کیا ہوں بس فیصلہ یہی ہے"

(قادیان کے آریا اور ہم، الخزائن الروحانية ج٢٠ ص٤٥٦)

بمعنى: إنه (أي النبي ﷺ) كل شيء.. أنا لست بشيء.. هذا هو قراري.

ويقول: "من فرق بيني وبين المصطفى فما عرفني وما رأى." (الخطبة الإلهامية، الخزائن الروحانية ج ١٦ ص ٢٥٩)

وهذا الموضوع قد انكشف عليّ مرة في المنام؛ في طريقنا إلى مقبرة الجنة كان هناك ميدان بين المدرسة الأحمدية ومكتبة بيع الكتب، وقد بُنيت هناك غرف الآن.. لقد رأيت في هذا الميدان كرسيا، وقيل إن رسول الله ﷺ قادم. ثم رأيت أنه ﷺ قادم من جهة، وحينما نظرت إلى الجهة الثانية رأيت المسيح الموعود عليه السلام قادمًا أيضا، وكان كلاهما يقترب من الكرسي، فقلقتُ قلقا شديدا وقلت ما هذا الخطأ الفادح الذي ارتُكبَ؟ فالرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام قادمان، ولكن الكرسي واحد! هذه إساءة كبيرة. إلا أني لم أستطع إحضار الكرسي بسرعة كما لم يخطر هذا ببال أحد آخر، فكان قلبي يرتجف خوفا، وكلما اقتربا ازددتُ اضطرابًا حتى اقتربا من الكرسي، فقلت في نفسي: لعل المسيح الموعود عليه السلام يتأخر، ولكنه لم

يتأخر، وتقدّمَ الرسولَ ﷺ أيضا، فظننت أن قلبي سيتوقف عن الحركة، ولكني رأيتُ بعد قليل أن كليهما يحاولان الجلوس على الكرسي معًا بإمالة أجسامهما ليَسَعَهما.. ثم أخذ جسداهما يتداخلان بعضهما ببعض، فلما جلسا على الكرسي لم يكونا اثنين، بل صارا شخصا واحدا.

هذه هي الحقيقة التي بيّنها الله تعالى بقوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.. أي أننا نقدّم كشهادة ذلك الشفع الذي يكون وترًا أيضا، بمعنى أنه سيكون هناك اثنان في الظاهر، أما في الحقيقة فليس هناك اثنان بل واحد فحسب.

ومن معاني قوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أنه سيظهر موعود واحد بينما يظن الناس أنه يجب أن يأتي اثنان: المهدي وعيسى، ولكنه سيكون وترا، أي سيكون شخصا واحدا ذا لقبيْن. كان الناس يظنونه شفْعا، ولكن تبين عند ظهوره أنه وتر.

وأرى أنه لم يسبق لهذا الواقع مثيل في التاريخ؛ أي أن يكون الناس ينتظرون مدّعييْن، ولكن يتبين في الأخير أنهما شخصية واحدة. إن هذا الزمن هو الزمن الوحيد الذي كان الناس ينتظرون فيه ظهور مسيح ومهدي، ولكنه لما ظهر تبين لهم أنه وتر.. بمعنى أن النبوءات كانت بظاهرها تنبئ عن شخصيتين، ولكن لم تكن هناك شخصيتان في الحقيقة، وإنما كان هناك شخص واحد له اسمان. وهذا ما بيّنه الله تعالى هنا أن هذين اسمان لشخص واحد. سيظن الناس أن هناك شفعًا، ولكن سيتبين عند ظهوره أنه وتر.

باختصار، إن لقوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ مفهومين: أولهما أن هذا الموعود له حقيقتان؛ حقيقة الشفع وحقيقة الوتر. فلأنه يكون شخصا منفصلا عن النبي ﷺ، فيبدو في الظاهر أن هناك نبييْن في الإسلام، ولكنه سيكون متفانيًا في الرسول ﷺ، تابعًا للإسلام، داعيًا إلى العمل بتعاليمه، ناطقا بشهادة محمد رسول الله ﷺ، ومعلِّمًا هذه الشهادةَ للناس، فلن يكون ثمة اثنان في الواقع، بل يكون في الإسلام نبي واحد في الحقيقة، لأن الاختلاف يؤدي إلى اثنين، بينما الاتحاد يجعل الاثنين واحدا.

والمفهوم الثاني أنه موعود واحد، ولكنه سيعطى لقبيْن نظرًا إلى منصبيْن له.

ثم يقول الله تعالى بعدها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. هذه الآية تشير إلى قرن آخر يكون بعد الليالي العشر المظلمة، وكأن الله تعالى يقول لن يزدهر الإسلام مباشرة بعد انتهاء الليالي العشر المظلمة. سيطلع الفجر بعدها ولا شك، وسيسطع شعاع نور، ويرى الناس بارقة أمل، ولكن الليل لن ينقضي، بل سيكون هناك فترة قرن قبل انقضاء هذا الليل.

والآن لو اعتبرنا ١٨٩٠ عامَ بزوغ هذا الفجر، فيكتمل هذا الليل (أي القرن) في ١٩٩٠. نحن اليوم في عام ١٩٤٥، وهذا يعني أنه لا يزال هنا ٤٦ سنة قبل انقضاء هذا الليل. أما إذا قمنا بالحساب بالتقويم الهجري، واعتبرنا عام ١٢٧١ الهجري عام انتهاء هذه الليالي العشر المظلمة، فيكتمل هذا الليل الباقي أي القرن الباقي في ١٣٧١، أي قد بقي ٨ سنوات فقط على انتهاء هذا الليل. وأما إذا بدأنا الحساب من رأس القرن الهجري وظننا أن هذا الليل سينتهي في عام ١٤٠٠، فلا يزال هناك ٤٧ عاما لانتهائه. هذه ثلاثة أزمنة بثلاثة اعتبارات مختلفة، والله أعلم أي منها صحيح وأيها غير صحيح. وقد تكون كل هذه الاعتبارات الثلاثة صحيحة، مثلما بينتُ بصدد نبوءة الليالي العشر أن هذه النبوءة تحققت في العام الذي أعلن فيه المسيح الموعود عليه السلام دعواه من جهة، ومن جهة أخرى تحققت في العام الذي أخذ فيه البيعة، ومن جهة ثالثة تحققت في العام الذي نُشر فيه كتابه "براهين أحمدية"، فليس بمستبعد أن ينتهي هذا الليل الباقي بعد ثمان سنوات أي في عام ١٩٥٢ باعتبار، أو بعد ٣٧ عاما أي في عام ١٩٨١ باعتبار آخر، أو بعد ٤٦ عاما أي في عام ١٩٩٠ باعتبار ثالث. وبحسب التقويم القمري تنقص ثلاث سنوات في القرن الميلادي فلذلك لو طرحنا ٣ سنوات من ٣٧ سنة، صارت ٣٤ سنة، وبهذا الاعتبار ينتهي هذا الليل ١٣٩٧هـ. وهكذا صارت عندنا أربعة اعتبارات لا ثلاثة، وحيث إن هذه النبوءة لم تتحقق بعد، لذا يجب أن نضع في الحسبان هذه الاعتبارات كلها، بمعنى قد بقي لانتهاء هذا الليل ٨ سنوات من منظور، و٣٤ سنة من منظور آخر، و٣٧ سنة من منظور ثالث، و٤٦ سنة من منظور رابع. فسوف يتجلى الله بيوم الفرقان يقينا في هذه الفترة ثانية، وسينصر الأحمدية بآية عظيمة غير عادية. لا شك

أن الحرب بيننا وبين معارضينا ستظل مستمرة بعدها كما استمرت الحروب بعد غزوة بدر في صدر الإسلام، بيد أن الله تعالى سيكتب الغلبة للأحمدية حتى يعترف بها العدو أيضا. أما الفتح الكامل المبين للإسلام والأحمدية فسيتم بعد حوالي ثلاثة قرون كما أنبأ المسيح الموعود عليه السلام (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية ج٢٠ ص٦٧). والشعوب التي لا تدخل بعدها في الأحمدية سيكون حالها كحال اليهود في هذه الأيام.

وبرغم أن هذا الفتح الأخير سيأتي بعد فترة طويلة، إلا أن الأحمدية ستحرز فتحًا ما بعد ٨ سنوات من اليوم، أو ٣٤ عاما، أو ٣٧ عاما، أو ٤٦ عاما أو قريبا من هذه السنين؛ لأن النبوءات لا تُحدَّد بالأيام، بل بشكل تقريبي؛ وقد تظهر أربعة فتوحات مختلفة في هذه المواعيد كلها. فكونوا على يقين أن الأحمدية ستنال فتحًا ما في كل هذه السنوات أو قريبا منها بإذن الله تعالى. ومن فوائد ظهور آيات الفتح والنصر في فترات متقاربة أنها تزيد إيمان المؤمنين مرة بعد أخرى. فالنبي ﷺ حين خرج من بيته بسلام فرِح المسلمون، ولما نجا من هجوم الأعداء في غار ثور نالوا فرحة أخرى، ولما وصل المدينة نالوا فرحة ثالثة، ولما هزم الكفار في غزوة فرحوا فرحة رابعة. فقد يُري الله تعالى شعاعًا من الفجر عند انتهاء كل فترة من هذه الفترات الأربعة، وهكذا يزداد المؤمنون إيمانا.

لقد قال المسيح الموعود عليه السلام مشيرا إلى هذا الليل نفسه في بيت شعر له بالأردية:

دن چڑھا ھے دشمنانِ دیں کا ھم پر رات ھے

اے مرے سورج نکل باھر کہ میں ھوں بے قرار

(براهين أحمدية، الجزء الخامس، الخزائن الروحانية ج ٢١ ص ١٢٩)

أي أن شمس أعداء الدين ساطعة، أما نحن فقد خيم علينا الليل، فاطلُعي يا شمسي فإني في اضطراب شديد.